حِجَاجِيَّة الاستعارةِ في رائيَّة ابن عبدون اليابريّ

(ت:520هـ)

The Rhetoric of Metaphor in the Poem of Ibn Abdoun Al-Yaburi (died 520 AH)

أ.م.د. أحمد بن عيضة الثقفي

Asst.Prof. Dr. Ahmed Bin Eidhah Al Thaqafi

جامعة الطائف/ كلية الآداب

University Of Taif\ college Art

E-mail: draalali@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الاستعارة، ابن عبدون، رثاء الممالك.

Keywords: Rhetoric, metaphor, Ibn Abdoun, elegies of kingdom.

الملخص

يتناول هذا البحث حجاجيةَ الاستعارة في رائيةِ ابنِ عبدون اليابُري المتوفى ٥٢٠ هـ، ويندرج في سياقِ الدراسةِ الحجاجيةِ للاستعارةِ انطلاقا من النظريةِ الحجاجيةِ التي لا تحصر وظيفةَ الاستعارةِ في بُعدِها الفني الجمالي بل تتعداها إلى الوظيفة الإقناعية والتأثيرية لدى المتلقي، من خلال عرضها للبراهين والأدلة في ذلك السياق والسعي على إظهار تلك القوة الإقناعية، وترتيب الحجج ترتيبا يتوافق والسلم الحجاجي.

Abstract

This research explores the rhetorical use of metaphor in the poem of Ibn Abdoun Al-Yaburi, who lived during the year 520 AH. It falls within the context of rhetorical studies of metaphor, based on rhetorical theory that does not limit the function of metaphor to its artistic and aesthetic dimension but extends it to its persuasive and influential function on the receiver. This is achieved by presenting evidence and arguments in that context and striving to highlight that persuasive power, while organizing the arguments in a manner consistent with rhetorical principles

المُقدّمةُ

ليسَ مِن شَكٍّ فِي أنَّ النّصَّ الأدبيَّ الإبداعيَّ يَرتكِزُ عَلَى غَايةٍ أصيلَةٍ، تَستهدفُ توصيلَ دفقاتِ الشُّعورِ الإنسانيّ والإحساسِ البَشريَّ إلَى مُتلقّيهَا فِي صُورةٍ تَملِكُ عَلَيهِ قَلبَهُ وتُؤثّرُ فِي وجدانِه، ومِن هُنا نَجِدُ اختِلافًا مَلحوظًا بينَ مَا يُنتِجُه النّاقدُ بِدَورِهِ التّحليليّ القَائمِ عَلى نَظريّاتٍ وَمناهِجَ، وَمَا يُنتِجُه الأديبُ بِوصفِهِ نَاقِلًا لِإحساسِه ومُوصّلًا لِإنتاجِهِ عَبْرَ جَسرٍ مِن العمليّاتِ المُتداخلةِ التي تُحدِثُ في نَفسِ المُتلقّي هذا التّأثيرَ؛ فَتحدو بِه إلَى التّمازُجِ مَعَ النّصّ وَالتّماهِي مَعَ مُناسَبةِ إنشائِهِ، مُحاولًا الوقوفَ عَلَى مقاصدِهِ.

ولأنَّ الاستعارةَ بِمَا لَهَا مِن تَأثيرٍ إيجابيٍّ فِي إنتاجِ دَلالةِ النّصوصِ الشّعريّةِ خَاصَّةً، ذاتَ موضوعٍ يُمكّنُ الشّاعرَ مِن توصيلِ مُحتوَى خِطابِهِ إلَى مُتلقّيهِ عَلى الوجهِ الّذي يَرغبُ فِي تَوصيلِه عَليهِ دُونَ أن يضطّرَهُ الأمرُ إلَى مُحاولةِ النّقلِ والتّوصيلِ مِن خلالِ استطراداتٍ قد تَذهبُ بِجَماليّاتِ النّصّ، وَتُحيلُ القارئَ عَلَى مَعانٍ أُخَرَ لَا اتّصالَ لَهَا بِخِطابِهِ، تَأتّى لِي مُناقشةُ نمط مِن النّماذجِ الشّعريّةِ الّتي وَقعَتْ فِي نَفسِي مَوقِعَها قَبلَ أن يكونَ لَهَا مِن العقلِ الموقِعَ نفسَهُ، مِن خلالِ دراسةِ الانعكاسَاتِ الدّلاليّةِ فِي صُورَتِهَا الحِجاجيّةِ عَلَى هذا النصّ، ومدَى مَا يُمكِنُ أن تُحِيلَ عَليهِ الاستعاراتُ الحجاجِيّةُ الّتي أنطقَ الشّاعرُ ابنُ عبدونَ بِواسِطتِهَا الخِطابَ، مِن مَعانٍ وَدلالاتٍ شَتَّى، عَلى أَن تَستقلَّ كلُّ استعارةٍ بِمَا يُلمَحُ تَحتَهَ مِن تَنظيراتٍ حِجاجيّةٍ تُفعِمُ دلالةَ الخِطابِ فِي تلكَ القَصيدةِ المُنتقاةِ مِن شِعرِ ابنِ عَبدونَ الأندلسيَّ، تَحتَ عَتبةٍ رَئيسةٍ تُبرِزُ مَفهومَ الاستعارةِ لَدَى هذا الشّاعرِ، وَنوعَهَا، وَتفصيلَ القَولِ فِي مَدَى مَا أسهَمت بِهِ مِن قُدرةٍ عَلَى تَوصيلِ المعنَى عَبْرَ عَمليَّاتٍ إزاحيّةٍ مُتباينَةٍ.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذه الدراسة من كونها تقارب نصًا شعريًّا مقاربة حجاجية؛ فيصبح الشعر الذي يتناول تجربة فردية محلاً للنظر في استراتيجيات الاستعارة للخطاب الحجاجي، وما تكشف عنه من تفسيرات مرتبطة بالشاعر ابن عبدون محل البحث؛ حيثُ يسهم في تحقيق قراءة استعارية حجاجية صادقة له.

وانِطلاقًا مِن تِلكَ الأهميَّةِ الَّتي أَولَاهَا الدَّرسُ الحِجاجيُّ لِلقارئ بِمَا لَهُ مِن دَورٍ مهم وفاعلٍ فِي تفعيل تلك الاستعارة الحجاجية للنَّص الشعري، وَتَحلِيلِ فحوَاهُ وَفهمِ صوره، تَأتَّى لِي أَن أَضَعَ فِي هذا الصَّدَدِ **أسباب اختيارِ الموضوعِ ودوافعِ دراسته** وذلك بالوقوف على نَماذِجَ مِن حجاجية الاستعارة في رائية ابن عبدون الشَّاعرِ الأندلُسي اليابري.

أمّا منهج البحث؛ فقَد جاءت فِكرةُ الحِجاجِ فِي هذه المَرثيّةِ عَلَى عددٍ كَبيرٍ مِن المَجازاتِ اللغويّةِ الّتي حدَّ ابنُ عَبدونَ أكثرِهَا في الإزاحةِ الاستِعاريّةِ، ولذا كانت العِنايةُ فِي هذه الدّراسةِ

بسَـبْرِ أغوارِ الدلالاتِ المَقصـودةِ من هذا الخطابِ الرّثائيّ لَدَى هذا الشّـاعرِ مِن خِلالِ الوقوفِ عَلَى حِجاجيّةِ تلكَ الاستعاراتِ المُختلفةِ والحججِ والبراهين التي يقدمُها بين يدي إقناعِهِ وحجتِه.

- **الدراسات السابقة**

لم يبدُ لي أن دراســـةً مســـتقلةً منفردةً تناولت "حجاجية الاســـتعارة في رائية ابن عبدون اليابري".، أما الدراسات التي تناولت شعر ابن عبدون، فمنها:

1- _**النكبات في شعر الأندلسي ابن عبدون اليابري أنموذجا**، نصر الدين بلخادم، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2019م.

2- **توظيف الموروث في أدب ابن عبدون، دراسة تحليلية**، عائشة سليمان سعيد أبو داحة، رسالة ماجستير، جامعة القدس، فلسطين، 2015م.

3- **صور من الانزياح في شعر ابن عبدون اليابُري**، إبراهيم منصور الياسين، كلية الآداب، حوليات آداب عين شمس، المجلد45،، عدد أكتوبر، ديسمبر، 2017م.

4- **شعر الرثاء عند الشاعر الأندلسي عبدالمجيد بن عبدون، الرؤية والتشكيل**، عمر فارس الكفاوين، كلية الآداب والفنون، جامعة فيلادلفيا، الأردن، المجلد 20، الملحق الأول، 1440هـ، 2019م.

5- **جماليات التشكيل الإيقاعي في رائية ابن عبدون الأندلسي(البسّامة) المتوفي(520هـ)**، أ.م.د: فائزة رضا شاهين العزاوي، جامعة تكريت، كلية العلوم والتربية الأساسية.

ولا شكَّ أن تلك الدراسات قد أضاءت لي مجالا رحبًا أثناء دراستي للاستعارة الحجاجية.

اقتضت طبيعة البَحثُ إلى تَقسِيمِه عَلى النَّحو الآتي:

1) التمهيد: ويشمل على:
- مفهوم الحِجاج لغةً واصطلاحًا.
- الخَصائصُ الاستعارية الحجاجية الإقناعيّة في صعيدها التداولي لدىٰ ابن عبدون اليابري.
- التعريف بابن عبدون اليابُري.

2) المبحث الأَوَّلُ: فاعلية الاستعارة الحجاجية.

3) المبحث الثاني: الاستعارة المكنية.

4) المبحث الثَّالث: الاستعارة التصريحية.

5) المبحث الرَّابع: الاستعارة التمثيلية.

أولا: مفهوم الحِجاج: لغةً واصطلاحًا.

جاء عند ابنِ منظور: الحجةُ البرهانُ، وقيل: الحجة ما دوفع به الخصـم، والحجة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصـــومة. وجمع الحجة: حجج وحجاج. والحجة: الدليل والبرهان. والتحاج: التخاصـــم، وحجه محاجة وحجاج: نازعه الحجة، والرجل المحجاج هو الرجل الجدل، والاحتجاج: اِحتج بالشيء: اتخذه حجة[1].

واصطلاحًا كما قال التهانوي (ت، ١١٥٨هـ) الذي جعله مرادفاً للدليل والمقصود منه إلزام الخصم وإسكاته، وهي شائعة في الكتب[2].

وعرفه ليول آرون الذي جعل منه حرباً كلامية فقال: "وتعني هذه الكلمة مواجهة أو جدالاً حامياً، في الأدب، كالاحتراب في ميدان المواجهات التي يمكن أن تشمل جميع الميادين وبخاصة السـياسـية والدينية والجمالية والعلمية ويشـكل هذا النوع من المناظرات العنيفة إحدى ثوابت النتاج اللغوي بعامة والنتاج النصي بخاصة والأدب تحديداً"[3].

وجاء عن الجاحظ (ت ٢٥٥هـــ) قوله: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ســاكن الجوارح، قليل اللحظ متخير اللفظ، لا يكلم ســيد الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة"[4].

وفي الصـناعتين يذكر العسـكري (ت، 395هـــ) أن الحِجاج له وظيفة كبيرة في الشـعر فيقول: "يملك ما تعطف به القلوب النافرة ويؤنس القلوب المســتوحشـــة وتلين به العريكة الأبية المستعصية ويبلغ به الحاجة وتقام به الحجة"[5]

يرى أن الحجة: هي الاستقامة في النظر، والمضـي فيه على سـنن مسـتقيم، من رد الفرع إلى الأصل، وهي مأخوذة من الحجة: وهي الطريق المستقيم، وهذا هو فعله المستدل، وليس من الدلالة في شـيء. وتأثير الحجة في النفس كتأثير البرهان فيها، وإنما تنفصـل الحجة من البرهان؛ لأن الحجة مشتقة من معنى الاستقامة في القصد: حج يحج، إذا استقام في قصده[6].

والحِجاج عند بيرلمان يتميز بخمسة ملامح رئيسة هي:

1- أن يتوجه إلى مستمع.

2- أن يعبر عنه بلغة طبيعية.

3- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.

4- لا يفتقر تقدمه – تناميه – إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.

5- ليست نتائجه ملزمة"[7].

ومن ثم فالحِجاج "عبارة عن تصـــور معين لقراءة الواقع اعتماداً على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب"[8].

فقد أولى عناصـــر الحِجاج أهمية خاصـــة في إنشـــائه لنظرية الحِجاج التي لا تكتفي بالأسـاليب اللغوية المنشـئة فحسـب، بل إنها تولي الظروف الخارجية اهتماماً كالظروف النفسـية والاجتماعية التي تتعلق بالمخاطب والمقام الخاص[9].

فالحجاجُ يقوم على الغلبةِ والتخاصـــمِ والاختلاف، فما "يظهر من هذا أن الحجاج يكون لخصـــومة، وهذا ما دلت عليه كلمة "غلبة"، وتكون الغلبة في الكلام والخطاب، الذي يقيم الحجة والبرهان على صـحة ما يدعي، وما دام هناك خصـومة، فالجدال هو المظهر الذي يجسـد صـورة الخطاب الحجاجي"[10]

ولتوضيح الفارق بين الحِجاج والشعر [11]:

1) إن لغة الحجاج هي العقل، ولغة الشعر هي لغة العاطفة.
2) إن الهدف من الشعر الإمتاع، والهدف من الحجاج الإقناع.
3) إن المعرفة الناتجة من الشعر حدسية، والمعرفة الناتجة عن الحجاج عقلية.
4) إن الشعر وعي خيالي، والحجاج وعي عمدي.
5) إن الشعر يخاطب العاطفة، والحجاج يخاطب العقل.

وترى **يمينة تابتي** أن الحجاج: "وســـيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه واتجاهاته، وانتقاداته وتوجيهاته"[12].

أما جميل عبد المجيد: وجاء تعريفه للحجاج مركزاً على أنه: "خطابة تســتهدف اســتمالة عقل المتلقي، والتأثير على سلوكه، أي الإقناع"[13]

فالهدف الأول من الحِجاج هو التأثير في العقول؛ لإقناعها، وهذا لا يعدم أن يتحقق هدف آخر، وهو أن يصل إلى القلوب لإمتاعها[14].

ثانيا: الخَصائصُ الاستعارية الحِجاجية لدىٰ ابنِ عبدون اليابُري.

إنَّ مِن دوافعِ إنتاجِ أيّ نصّ مِن النُّصـــوصِ الإبداعيّةِ، تلك العلاقةُ الحميميةُ الّتي تَنشَـــأُ في جَوّ نَفســـيٍ وَفكريّ مَشـــحونٍ بَالعاطفةِ والانفعالِ بينَ النّصّ ومُنتجِهِ، والّتي تَعملُ – مِن أوّلِ الأمرِ– عَلَى تَوفيرِ المُناخِ المُلائم لِإنتاجِ خِطابهِ الأدبيّ الذي يَحمِلُ سَوانِحَ أفكارِهِ وَشواردَ خَواطرِهِ، وتُعبّرُ عَن ذاتيتِـهِ وَتعكسُ مَؤثّراتِ هذا المُنتَجِ الإبـداعيّ عَلَى نَفسِ وذِهنِ القـارئِ، بِتُهيّئـةِ الجوّ النّفسيّ المُناسبِ لِاستقبالِ النّصّ وَمُحاولةِ فَهمِ خِطاباتِه.

وَمِن هُنا يَأتِي سَـعيُ الشّـاعرِ إلَى دَعمِ خِطابَاتِه الشّـعريّةِ وتعزيزِها بمجموعةٍ وافرةٍ مِن الرَّكائزِ الإزاحيّةِ الّتي يَتّخذُ مِنهَا ما يركنُ إليهِ فِي عَمليَّةِ الإرســـالِ والنّقلِ، ويُســـانِدُ بِهَا القِيمَةَ الإبداعيّةَ؛ لِتُجَلّيَ عَن جَماليَّةِ النّصّ إلَى جَانبِ غَايتِه التّوصـــيليّةِ مِنهُ، وَكثيرًا مَا يَتّكئُ الشُّـــعراءُ عَلَى سَوقِ الحججِ والبَراهينِ المُعزّزةِ لِفكرةٍ مَا يُضـمّنُونهَا فِي تَضَـاعيفِ خِطابِهِم، والدّاعمةِ لِقَضـيّةٍ

مِن القَضــاياَ الشّــعريّةِ الّتي يَرغبونَ فِي نَقلِهَا إلَى جِهةِ المُخاطَبِينَ بِهذا النّصّ، فَيَوظِّفُونَ فِي ذلكَ مَا يَصلحُ أن يَقومَ بِهذا الدّورِ مِن الأساليبِ العربيّةِ الّتي تتناسبُ معَ طَبيعةِ الشّعرِ؛ إذ إنَّ إيرادَهُم لِحُجّةِ وَسوقَهُم للبُراهينِ مُجرّدةً عَن النَّزعةِ الجَماليّةِ البلاغيّةِ مِمّا يُحيلُ بِهِ الشّاعرُ عَلَى خصائصِ النّثرِ الفَنيّ.

فالحجاج وسـيلة من وسـائل الإقناع والتعبير عن الرأي وتفنيد الرأي المعارض ولا يخلو نص أدبي من الحجاج حتى الشـعر، ونجده كذلك في أعمال أخرى، علمية إعلامية نقدية فكرية، وفلسفية وقضائية، التي أساسها مقابلة الرأي بالرأي ومقارعة الحجة بالحجة. إلى جانب هذا، نجد أن الحجاج يأخذ أشكالاً مختلفة من أهمها الاستدلال المنطقي، والحجاج الخاطئ. كما يقوم على آليات حجاجية متمثلة في الخطاب الحجاجي البلاغي، والخطاب الفلسـفي، والخطاب الحجاجي التداولي [15].

إنّ أول ما يحتاجه مؤلفُ الكلامِ معرفة اللغة والعلم بقواعدها اللغوية والأدبية والقدرة على الإبداع والابتكار، وإنتاج الكلام البليغ وتعني الكفاءة الثقافية أن يعرف مؤلف الخطاب ثقافةَ العالم الذي يريد أن يتدخل فيه، وأن يوظّف هذه الثقافة في الإقناع والتأثير[16]، وإنَّ أجلَّ مَا يكونُ تَأثيرًا فِي إنزالِ الدلالاتِ المقاصـديّةِ الّتي يَشـملُها الخِطابُ الشّـعريُّ مَنزِلَهَا، مِن أفانِينِ بِلاغةِ العَرَبِ، الاستِعاراتُ بِمُختلَفِ أنواعِهَا، مَكنيةً كَانت أو تَصريحيّةً، مُفردةً أو تَمثيليَّةً، إلَى غيرِ ذلك مِن أنواعِ الاستعاراتِ الّتي تُشكّلُ عُمقًا دلاليًّا فِي بِناءِ النّظمِ وَتَحديدِ الغرضِ منهُ، وَاستقصـاءِ مَعالِمِ تَكوينِهِ المُعِينةِ عَلَى فَهمِ مَراميهِ، وحيثُ لَم تَكُن القوّةُ البُرهنيّةُ الّتي يَسـتَعِينُ بِهَا الشّـاعرُ بِمحلّهَا الّذي يَتطابقُ مَعَ خصـائصِ الشّـعرِ؛ لِتَمايزِ طَرائقِ نَظمِه عَن طَرائقِ إنشـاءِ السّردِ، وَجبَ تَضـمِينُ تَلكَ البَراهينِ فِي صُـورةٍ جَماليَّةٍ تُفصِـلُ بَينَ طَريقَتِي التّوظيفِ الحِجاجيّ فِي النّظمِ وفِي النّثرِ، فَكانَ اختيارُ الشُّـعراءِ لِلاسـتعارةِ الحِجاجِيّةِ؛ لِقيامِهَا بِمَا لَا تَقمُ بِهِ أنواعُ المَجازِ الأُخرَى مِن دَورٍ فِي التّبليغِ.

وحيثُ كانَ للشِعرِ الأندلسيّ خَصوصيّة اتّسمَ بِهَا فِي الجَوانبِ السّياسيّةِ والدّينيّةِ، اَرتَسَمَت مَلامِحُ الاحتِجاجِ فِي كَثيرٍ مِن نصـوصِ شُـعرائِهِ كلٌّ بِحَسـبِ مَلَكَتِه وَقُدرَتِه عَلَى التّصـويرِ، ولأنَّ ابنَ عَبدونَ اليابري، أحدَ أبطالِ المَعاركِ الشّـعريّةِ التي نَقَلَتْ لَنَا تَفاصِـيلَ حِقبةٍ تَاريخيّةٍ مِن حِقَبِ الّتاريخِ السّياسيّ الأندلُسيّ، كَانَ لِزامًا عَلَيهِ أَن يَأتِيَ فِي كَثيرٍ مِن خِطابَاتِه الشّعريّةِ بِمَا يُؤكّدُ عَلَى قوّةِ حُجّتِه فِيمَا أرادَ التّأكيدَ عَلَيهِ، وِلتَمكُّنِ شَـاعرِنَا مِن أدواتِه، وامتلاكِهِ نَاصـيَةَ النَظمِ جَادَ بِبَوحِه الشّـعريّ عَن نَكبةٍ مِن نَكباتِ التَّاريخِ الأندلُسـيّ، مَعُبّرًا عَنَها أوفرَ مَا يَكونُ التّعبيرُ بِعددٍ مِن الاسـتِعاراتِ الحِجاجيّةِ المُصـوّرةِ لِفَداحةِ الخَطبِ وَعِظَمِ المُصـيبةِ فِي قَتلِ المُتوكّلِ بنِ الأفطسِ وَولَدِيهِ الفَضلِ وَالعَبَّاسِ عَلَى يَدِ جُيوشِ المُرابِطينِ الّتي اجتاحَتْ بَطلَيوسَ سَنةَ 487 هـ، ولعلَّهُ

اطمَأنَّ لِأنَّ الإحالَةَ عَلَى المَعانِي المَجازيّةِ فِي التّعبِيرِ عَن مُصـــيبتِه فَي فَقْدِ هَؤلاءِ الأعلامِ إثرَ اجتياحِ جُيوشِ المُرابِطِينَ لِبطليوسَ، مِن خِلالِ الاسـتِعارةِ بِأنواعِهَا، أليَقَ بِمَقامِ الاحتِجاجِ وَأنسَـبَ بِدلالَتِه عَلَى مَا أمَّهُ مِن المَقاصِـدِ، ولِإدراكِهِ أنَّ فِي الاسـتِعارَاتِ المُوظّفةِ فِي تِلكَ المَرثيّةِ مَا يُمكّنُهُ مِن الإحالَةِ بِهَا عَلَى تَعزيزِ وَدعمِ حُجّتِه، خَصَّـــهَا هِيَ دُونَ مَا قَد يُفضِـــي إلَى الدّلالَةِ ذاتِهَا مِن الصُّورِ البلاغيّةِ والأخيلَةِ الّتي قَد لَا تُقوّي مِن الحِجاجِ ولَا تَتنسانَدُ فِيهَا البَراهِينُ مَعَها.

نَصَّ أرسطوطالِيس عَلى قُوّةِ الرّابطِةِ بينَ الحِجاجِ والاستِعارةِ قبلَ الاستكشافاتِ المَعرُوفَةِ لدَى جماعةِ النُّقادِ الغربيينَ في هذا الصّـــددِ بِعقودٍ طويلةٍ، ذلكَ فِيَما لَقِيَهُ الكلامُ عن تِلكَ العَلاقةِ الّتي لَمَحَها بينَ الحِجاجِ والاسِـتَعارةِ في المَنطقِ الصـوريّ لَدَيهِ، حِينَ نَصَّ أرسـطُو علَى معنَى الرَّمزِ بِطريقٍ غَيرِ مُباشِـرٍ فِي طيَّاتِ حديثِهِ عَما يَحسُـنُ بالشِّـعرِ والخطابةِ مِن أسـاليبِ العَرضِ، وتقنياتِ الطَّرحِ، بِقولِهِ: "وقد يُبدل بالاسم القولُ، إذا كان الصّـريحُ يُستبشَـعُ، مثلُ الاسمِ الصّـريحِ لِفَرجِ النِّساءِ، فالأحسنُ أن يبدَلَ، فيقالَ: عورةُ النِّساءِ، وكمَا يُبدل الحيضُ بِدَمِ النِّساءِ... ورُبّما بُدِّلَ الاسـمُ بالصِّـفةِ المُفردةِ، ورُبّما تُركت الصـفةُ، وفُزِعَ إلى التّشـبيه والاسـتعارة، والشّـعراءُ يجتنبون استعمالَ اللَّفظَ الموضوعَ، ويحرصُونَ عَلَى الاستِعارةِ حِرصًا شديدًا[17]".

وهنا نجدُ أنَّ أرسـطو قد حصـرَ الرمزَ في مُستوًى واحدٍ من مُستوياتِهِ، إذ إنَّ الاسـتعارةَ والتشـبيهَ والإحالةَ من المعنَى الموضـوعِ التقريريّ إلى معنًى إزاحيٍّ لا يُشـكِّلُ في الرمزِ إلَّا جانبَهُ الأبرزَ، عَلَى حين أنَّا نجدَ لهُ عددًا من مستوياتِ التَّعبيرِ المعبرةِ عن الدلالةِ يَنحو الشاعرُ سبيلَها بِالاستِعارَةِ الحِجاجِيّةِ نقفُ عليهَا في تضاعيفِ تحلِيلِنا لِتلك المَرثيَّةِ

تناول الدارسون الغربيون الوظيفة الإقناعية للحجاج حسب توجهاتهم في إرساء المفاهيم الجديدة للبلاغة الغربية، بينما نجد هذا الجانب من الدراسـة عند العرب تمثل في نظريات مختلفة في تناول الخطاب الإقناعي الأدبي من خلال ربطه بعلم البلاغة[18]، وقد وظـــف ابن عبدون الاستعارة حسـبما أراد، وحسبما يخدم أفكاره ويكشف توجهاته الذاتية، والسياسية، و الدينية التي تركت صداها على الأدب والخطاب الحجاجي؛ حيثُ تبحر الشاعر الأندلسي في أنساق حجاجية متباينة من ناحية التأثير الحجاجي مصارعًا الذهن عند ذلك التأويل الحجاجي.

وفي خضـم هذا المجال الحجاجي؛ الذي يعد خطابا حجاجيًّا فعالا، يتضـمن جهد بعض الباحثين في بيان شـعرية الحجة وحجية الصـور البلاغيَّة، وهذا مطلب في غاية الأهمية والعمق والتبيان[19] لا أن يخرج الشعر إلى الاستلزام الحواري لكن" ينبغي أن يحترس منه الشاعر حتى لا يغلبه على شعره، فيخرجه من دوائر الشعر إلى دوائر النثر"[20] ولا يعني حصر الشعر في زاوية التنميق والإمتاع، إذ "إن ارتباط البلاغة بالشـعر ليس ارتباطاً أسـلوبياً بالمعنى الذي يسـبغ على

الأسلوب الشعري، كتنميق وزخرفة ومبالغة، وإنما كمثال للإقناع، من خلال وظائف اللغة الشعرية المجازية والاستعارية في الحجاج"[21].

ثالثا: ابن عبدون و رائيته:

"هو أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون الفهري [22]، اليابُري، يكنى أبا محمد وينسب إلى يابرة[23]، ومدينه يابرة هذه كانت مشهورة في مملكة بطليوس، وكثيرا ما ذكرها ابنُ عبدون في شعره. ولد ابن عبدون كما يرجح بعد 440 هـ، ونشا في جو تشيع فيه الثقافة العربية الإسلامية فاستقى معارفه من ملازمة العلماء الذين كانوا يعقدون حلقات العلم والأدب في أقاليم الأندلس الكبرى وكون لنفسه ثقافة واسعة شملت اللغة والشعر والأخبار والأنساب، بالإضافة إلى الفقه والحديث، مع رغبته كأكثر الأندلسيين في هذه الفترة الفلسفة والمنطق وقد استوزر بنو الأفطس ابنَ عبدون ومدحهم كثيرا إلى انتهاء دولتهم ثم انتقل إلى خدمه المرابطين بعد خلع ملوك الطوائف[24]

عاش ابن عبدون في بلاط المتوكل بن الأفطس في بطليوس، وكان من أكابر الدولة، وحظي عنده بالصحبة، ثم جعله المتوكل كاتبه ووزيره سنة 473هـ، وكان ابن عبدون كثير الحفظ حتى ذكر أبو مروان عبد الملك بن زهر في شأنه أنّه كان يحفظ كتاب الأغاني، فقد كان يتمتع بجودة القريحة وقوة الذكاء[25].

فالشاعر في مرثيته الرائية " البسامة" يسلم كل ما يجري على هذه المعمورة للقدر الإلهي[26].

وفاته

اختلف المؤرخون في ذلك[27]، وقد رجّح سليم التّنير محقق الديوان أن وفاته كانت نحو سنة 527هـ معتمدًا على بعض الأحداث التّاريخيّة، ويرى أن من يقول بوفاة ابن عبدون قبل سنة 520هـ بأنهم واهمون أو أنّهم يعنون شخصًا آخر[28].

الاستعارة الحجاجيَّة: تأطير حجاجي

انتشار الاستعارة الحجاجية في الشعر الأندلسي، ولا سيَّما شعرِ ابنِ عبدون؛ يوحي بأصالة استعماله الإقناعي والتأثيري في الخطاب الشعري الحجاجي، فقد أورد عبد القاهر الجرجاني تعريفًا للاستعارة: بأنها" تُريد تشبيه الشيء بالشيء، فتَدَعَ أن تفصحَ بالتشبيه و تظهره، و تجيءَ إلى اسم المشبَّه به فتعيرَهُ المشبَّه و تُجْرِيَهُ عليه "[29]

تُفعِّلُ الاستعارةُ بلاغتَها التجاوزية التي تقوم على دخول المستعار في جنس المستعار له[30]. وهي بذلك تنتقل بالنص الشعريّ من الجمود اللفظي المُحَجِّم له إلى السيرورة في التعبير و المرونة في الاستعمال اللغوي داخل أيّ نص أدبي[31]. و بهذا يَنال الإقناع بحظٍّ فوق حظِّهِ

الطبيعي عند توظيفه للصور الاستعاريَّة؛ لأن الإقناع سيفرض سلطته من خلال جمالية الغرابة في التعبير؛ فأثر التجميل الذي تمنحه الاستعارة للنص الشعريّ لا ينفك عن غاية الإقناع؛ فكل جميل تستهويه النفوس و تتأثر به، و هذا مما يجعل الاستعارة قابلة للتحليل وفق نظريات بلاغة الحجاج التداوليّ[32]

لا يماري أحدٌ في أن الاستعارةَ كانت و مازالت من أهمِّ ما يجلب اهتمامَ الباحثين على اختلاف مشاربهم وتباين أهدافهم، رغم ما عرفته العلوم اللغوية من تحول وتطور؛ مما يحتم على الباحث بيان الطريق الذي يسلكه في تناول الاستعارة، ولقد بات جليا الأهمية البالغة لهذه القضية، لا سيما في الدراسات اللغوية والبلاغية والتداولية والحجاجية والفلسفية واللسانية والنقدية، وهذا ما جعل الآراء في الاستعارة تختلف اختلافاً واسعاً مما أدى في الأخير إلى اعتبارها نقطة محيرة لدى الدارسين؛ بل ومن أكثر المواضيع طرفا من طرفهم[33]، ولذلك فالاستعارة الحجاجية تعمل على تشكيل بنية دلالية جديدة تحيل القارئ إلى الإقناع بالخطاب الحجاجي الذي يجذب المتلقي في خضم نصوص ابن عبدون ؛ لما يؤديه في تلك الرَّائيَّة إلى الاستدلالِ و البرهانِ، و غيرها من مقتضيات ممارسة الإقناع الحجاجي في إطار التأويل الكلامي المتداول على أنه فن من فنون الإبداع الأدبي.

فالاستعارة "تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدد من الدرر[34]"، وترسِّخ الصورةَ الأدبية في ذهن المتلقي، وكذلك تولِّدُ رغبة التأمل و القراءة عنده[35] ؛ فالمتلقي يوظف الاستعارة بغية تحقيق أهدافه الإقناعية الحِجاجية، فيلجأ إلى استعمالها في تضاعيف نصوصه؛ لأنها أبلغ من الحقيقة في الاستدلال[36]. و بذلك تغدو الاستعارة حجةً مقنعةً تستخدم في الدفاع عن أطروحةٍ ما أو رأيٍ ما[37]، وتسهم "كباقي الآليات في بناء القول الحجاجيّ من مختلف النواحي الحجاجية، و ذلك بغية التأثير والإقناع الحجاجي"[38].

لكل فن أو فكرة أو تقنية بلاغية أو حجاجية أو... قوةٌ و ضعفٌ، و الاستعارة تستمد قوتَها من جِدَّتِها، و حين تتكرر تضعف، و تتوارى، و تصبح موضعاً معتاداً لا يثير الانتباه[39]؛ فالهدف من تلك التقنية هو الحرص على استمالة قلب القارئ بالتصوير الاستعاري الحجاجي.

إنَّ نصيبَ الإقناع الحجاجي الشعري لدى ابن عبدون من الاستعارة وافرٌ بأنواعها المختلفة، لكن توزيعها يتباين من موضوع حجاجي لآخرَ، وهذا يرجع إلى حالة الإقناع الحجاجي لدى الشاعر من وجدانه، وخلجات نفسه؛ فالنصوص الشعرية تتراوح بين الحدة و القوة، و اللين و الرقة بحسب تقنيات الشاعر الحجاجية.

لقد بدأ النظر إلى استعمال الأداء الاستعاري في العبارة الشعرية على أنه تجاوز للحقيقة بنقل الكلمة إلى غير مجالها المألوف، وهذا ما يحتم على الذهن نوعاً من الانصراف وراء

المعاني، وفتح مغاليقها بلحاظ من التدبر والتأمل؛ لأنّها مكمن انطلاق الدلالة، وقد عرّفها **الرماني** (ت: 386هـ) وكذلك هي: "تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة"(40).

المبحث الأول: فاعلية الاستعارة الحجاجية

تشـكّل الاسـتعارة سـمةً بارزةً في النقدِ البلاغي والأدبي بشـكلٍ عام؛ فتعدد الاتجاهات والأفكار التي تعتمد على الاسـتعارة تظهر القدرة المتنوعة لهذه التقنية على التعبير عن مفاهيم مختلفة وإيصال معانٍ متعددة، ويتيح للكتَّاب والشعراء استخدام الاستعارة الحجاجية لإضافة عمقًا وتأثيرًا إلى كتاباتهم.

فالشـعر الأندلسـي باعتباره شـعر إنسـاني يمتاز بالعمق والنضـج على خلاف ما يعتقده البعض، وكان التأمل السمة البارزة التي تجلت في نصـوص الشـعر الأندلسـي، خاصـة عند ابن خفاجة وابن عبدون، وغيرهم من الشعراء الذين تأثروا بالبيئة الأندلسية وما عكسته من صـراعات سياسية واجتماعية؛ حيث حاولوا تفسير حقيقة الوجود من خلال تجاربهم الشعرية(41).

وتصـبح الاسـتعارة أداة فعّالة لإيصـال المعنى بأقل عدد من الكلمات وبأسـلوب يثير الإحساس والتأمل لدى القارئ، وتجعل الإيجاز والتكثيف الدلالي للنصوص أكثر غموضًا وتعقيدًا؛ مما يدفع القارئ إلى التفكير والبحث عن المعاني العميقة والرمزية.

بشكل عام، فالاستعارة تمثل أحد الأدوات الرئيسة في الأدب والنقد لإثراء اللغة وتوسيع آفاق التعبير الفني، ويقول الشاعر (42).

وَأَلحَقَت أُختَها طسـماً وَعاد عَلى عادٍ وَجُرهُم مِنها ناقِض المِرَرِ

وَألحقَت بِعَدِيٍّ بِالعِراقِ عَلى يَدِ اِبنِهِ أَحمَرَ العَينَينِ وَالشعرِ

وَأَهلَكَت إِبرويزاً بِابنِهِ وَرَمَت بِيَزدجردَ إِلى مَروٍ فَلَم يَحُرِ

وَبَلَّغت يَزدجردَ الصينَ وَاِختَزَلَت عَنهُ سِوى الفرس جَمع التُركِ وَالخَزَرِ

وَلَم تَرُدَّ مَواضي رُستُمٍ وَقَنا ذي حاجِبٍ عَنهُ سَعدا في اِبنَةِ الغيرِ

تستخدم الأبيات تقنية الحجاجية والاستعارة ؛ للتعبير عن سلسلة من الأحداث التاريخية والعسكرية بتقنية حجاجية من خلال استخدام الأفعال والأسماء بمعانٍ مجازية؛ ففي قوله" وأَلحَقَت أُختَها..." الاستعارة تُستخدَم هنا لوصف انتقام مجموعة معينة من الأشخاص وعقوبتهم، وقوله "وَجُرهُم مِنها ناقِض المِرَرِ" تُشير إلى تجاوز هؤلاء الأشخاص للحدود والأعراف وارتكابهم أفعالًا مختلفة عن المألوف، والفعل "وَألحقَت ": الاستعارة تُستخدم لوصف الانضمام؛ وهي للتشخيص،

وفي قوله" وأَهلَكَت إِبرويزاً ": الاستعارة تُستخدم لوصف تدمير مدينة إبرويز وإرسال يزدجرد إلى مدينة مرو.

ويأتي الفعل الحجاجي الاستعاري "رَمَت بِيَزدجردَ"؛ ليشير إلى تدمير يزدجرد وتجريده من القوة والقدرة على المقاومة، "وَبَلَّغت " الاستعارة تُستخدم لوصف امتداد نفوذ يزدجرد إلى الصين، "اِختَزَلَت " تُشير إلى أنه استمر في السيطرة على الأراضي الفارسية مع تراجع نفوذ الأتراك والخزر، "وَلَم تَرُدَّ " الاستعارة تُستخدم لوصف الاستيلاء على مواضع رستم وقمع المعارض.

يمثل الخطاب الحجاجي مظهرًا لغويًا تتجلى في جوهره مدلولات متعددة، والاستعارة واحدة من هذه المدلولات التي تستلزم شبكة من المفاهيم القائمة على فلسفة الحجاج الاستعاري؛ إذ تتمحور حول الصورة الأدبية، لكن دورها لا يقتصر على ما تنتجه من جماليات حجاجية في الخطاب وامتاع القارئ؛ لما تحفل به من قدرة على نقل الأفكار من وجه الحقيقة إلى التخييل، وتقدم المعاني البليغة مرتكزة على سمة الإيجاز من دون الإخلال بالدلالة، فضلاً نقلها المشاعر وترجمة الانفعالات بدور تواصلي مؤثر في المتلقي [43].

ويقول الشاعر [44].

وَمَزَّقَت جَعفَراً بِالبيضِ وَاِختَلَسَت	**مِن غيلِهِ حَمزَةَ الظلّامِ لِلجُزُرِ**
وَأَشرَفَت بِخبَيتٍ فَوقَ فارِعَةٍ	**وَأَلصَقَت طَلحَةَ الفَيّاض بِالعفرِ**
وَخَضَّبَت شَيبَ عُثمانٍ دَماً وَخَطَت	**إِلى الزُبَيرِ وَلَم تَستَحي مِن عمرِ**
وَلا رَعَت لِأَبي اليَقطان صُحبَتَهُ	**وَلَم تُزَوّده إِلّا الضَيحَ في الغُمُرِ**
وَأَجزَرَت سَيفَ أَشقاها أَبا حَسَنٍ	**وَأَمكَنَت مِن حُسَينٍ راحَتي شَمِرِ**

فالفعل الحجاجي في قوله: "وَمَزَّقَت " الاستعارة هنا تُستخدم لوصف مفترقات في التاريخ الإسلامي، والفعل الحجاجي مزَّقَت تُشير إلى تفكيك أو هزيمة جيش جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه–، وقوله " اِختَلَسَت" تشير إلى تحالف حمزة بن عبد المطلب مع بني الظلام للدفاع عن الجزر، "وَأَشرَفَت " الاستعارة تُستخدم هنا لوصف أماكن تاريخية ومعارك؛ حيثُ تُشير إلى موقع خبيت فوق جبل فارعة، والفعل الحجاجي "أَلصَقَت" يشير إلى تلاحم طلحة الفياض مع العفر خلال الصراعات القبلية.

"وَخَضَّبَت " الاستعارة تُستخدم هنا لوصف الأحداث المؤلمة، خَضَّبَت تُشير إلى استخدام دماء شهداء المسلمين لصبغ شعر شيب عثمان بن عفَّان – رضي الله عنه – خَطَبت تُشير إلى اتخاذ الزُبَير قرارًا صعبًا دون الشعور بالحياء من عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، فالقول

الاستعاري له قوته وقدرته على التأثير والاقناع ؛ لهذا جاء في أعلى السُّلَّم الحجاجي، بينما القول الحقيقي جاء في الأدنى؛ لأنه لا قدرة له على التأثير، "وَلا رَعَت " الاستعارة هنا تُستخدم للتعبير عن تجاهل الأصدقاء والمؤيدين لأبي اليقطان بعد تحقيقه للنجاح، "وَأَجزَرَت " الاستعارة تُستخدم هنا لوصف أفعالِ أبي الحسن (الخليفة الراشد علي رضي الله عنه) والحسين بن علي – رضي الله عنهما –، وتُشير إلى جزر سيف الشقي (ابن ملجم) وكأنها قدمت السيفَ لأمير المؤمنين ومنحته ؛ ليقتل به ابنَ ملجم، والجزر تقديم الشّاة للذبح .

أمَّا الفعل "أَمكَنَت " تُشير استشهاد الحسين –رضي الله عنه– على يد شمر بن ذي الجوشن في معركة كربلاء، ويقول [45]:

وَلَم تُراقِب مَكانَ ابن الزُبَيرِ وَلا ... راعَت عِياذَتهُ بِالبَيتِ وَالحَجَرِ

وَأَعمَلَت في لَطيمِ الجِنّ حيلَتَها ... وَاِستَوسَقَت لِأَبي الذبّانِ ذي البَخَرِ

وَلَم تَدَع لِأَبي الذبّانِ قاضِبهُ ... لَيسَ اللَطيمُ لَها عَمرو بِمُنتَصِرِ

وَأَحرَقت شِلوَ زَيدٍ بعدَما اِحتَرَقَت ... عَلَيهِ وَجداً قُلوبُ الآيِ وَالسُوَرِ

وَأَظفَرَت بِالوَليدِ بنِ اليَزيدِ وَلَم ... تُبقِ الخِلافَةَ بَينَ الكَأسِ وَالوَتَرِ

تبرز القيمة الحجاجية في النص أعلاه من الاستعارة التي جعلها الشاعر منطلقًا من حقيقة مسلّم بها لدى الجميع، ويدور مفهوم النص حولها ؛ إذ تعتمد على استخدام الأفعال بمعانٍ مجازية أو استعارية للتعبير عنها بشكل فنيٍّ من حيث التشخيص لليالي والدنيا ؛ ففي قوله " وَلَم تُراقب ": فاستخدام الاستعارة في هذه الجملة للتعبير عن عدم مراقبة ابن الزبير أو الاهتمام بسلامته، فالاستعارة –هنا– تأخذ شكل التوصيل بين الرقابة الفعلية على مكان ابن الزبير والاهتمام بسلامته وبين عبارات مثل "البيت والحجر" التي تعني المكان الآمن والمأوى. أمَّا قوله في الفعل الحجاجي "وَأَعمَلَت "–هنا– تستخدم لوصف الحيلة والذكاء؛ للحماية والتمكين، وقوله "وَلَم تَدَع ": تستخدم الاستعارة –هنا– للإشارة إلى عدم ترك أي فرصة للفرار أو التحرك، وتظهر حجاجية هذه الاستعارة بتكريسها في قوله: "وَأَحرَقت ": إذ استخدم الاستعارة هنا لوصف الحالة القاسية والعواقب الوخيمة لِشلوَ زيد بعد تعرضها للحرق، ويأتي الدليل القاطع للفعل الحجاجي في قوله "وَجداً قُلوبُ الآيِ وَالسُوَرِ" الذي يشير إلى تأثر القلوب والجدران بما حدث، والفعل الحجاجي "وَأَظفَرَت " تستخدم الاستعارةُ –هنا– للتعبير عن النجاح والنَّصر في الوصول إلى السلطة أو الحكم، وقد أكد الشاعر الدليل الحجاجي بقوله "الكَأسِ وَالوَتَرِ" التي تشير إلى الجوانب المتنافسة أو المتضاربة، وهي تقنية شعرية للإشارة إلى الصراع السياسي، وتقلب الأحوال.

ندرك – جميعا– الاستعارة في الأدب والشعر. بالفعل، الاستعارة ليست مجرد تغيير في الكلمات أو تلاعب بالألفاظ، بل هي أسلوب فني يسمح للكتَّاب والشعراء بتحويل اللغة إلى وسيلة تعبيرية تفتح أبواب الإبداع والتعبير عن المشاعر والأفكار بأشكال جديدة.

ومن خلال خرق قوانين اللغة والانتقال من الحقيقة إلى المجاز، تصبح الألفاظ أكثر إثارة وتأثيرًا على المتلقي، حيثُ يمكن استخدام الاستعارة لنقل الأفكار والمشاعر بطرق تثير الانفعال وتجعل النصـــوص أكثر إشـــباعًا عاطفيًا؛ إذ تمثل نافذة تطل على عوالم معنوية مختلفة، وهي تعطي حرية لاحتضـــان الغموض، والتعقيد، والرمزية؛ مما يجعل المتلقي يبحث عن المعاني العميقة وراء الألفاظ، وتسـهم بشـكل كبير في خلق انفعالات شـعرية قوية وتعزيز التأثير الأدبي للنصوص، وهذا يجعلها أحد أهم الأدوات في عالم الأدب والشعر

يجعل الشـاعرُ من الاسـتعارة رمزًا إقناعيًا للاسـتعارة المكنية، وهذا يرجع إلى أنّ هذه الاســـتعارةَ على الرغم من حملها أســـلوبًا إقناعيًا توجه ذهن المتلقي نحو الحالة التي يمرُّ بها الشاعرُ، وما يكابده من صراعٍ سياسي.

أفعال الاستعارة الحجاجية في الرائية

فَلا تَغُرَّنكَ / تَسُـرُّ / تغر/ لَم تُبقِ مِنها / هَوَت بِدارا / وَفَلَّت /وَاِسـتَرجَعَت /وهبت / وَلَم تَدَع / / وأتبعت / وَأَلحَقَت /وَما أَقالَت /وَلا أَجارَت /وَمَزَّقَت ســـباً /وَأَنفَذَت / ورمت/ وَلَم تَرُدَّ /وَلا ثَنَت / وَدوّخَت / وَغَضَّـت /وَألحقَت / وأشـرفت / وَأَهلَكَت /وَبَلَّغت /وَلَم تَرُدَّ /وَمَزَّقَت /وَأَشـرَفَت / وَأَلصَـقَت /وَخَضَّـبَت / وَلَم تَستَحي /وَلا رَعَت / وَلَم تُزَوّده /وَأَجزَرَت /وَأَمكَنَت /وَأَردت /وَعَمَّمَت / وَلَم تَرُدَّ /أَنزَلت /وَلَم تُراقب /وَأَعمَلَت /وَلَم تَدَع /وَأَحرَقتُ /وَأَظفَرَت / وَلَم تُبقِ /وَلَم تَعُد /وَأَســبَلَت /وَأَخفَرَت/ وانتدبت / وأعثرت / وَما وَفَت/ وأوثقت/ وأشرقت...

المَبحَثُ الثاني: الاستِعارَةُ المَكنِيَّةُ

هي الاستعارة المبنية على ذكر المستعار له (المشبه)، وحذف المستعار منه (المشبه به) مع ذكر شيء من لوازمه [46]، وقد وردت الاستعارة الحجاجية في مواضع مختلفة.

لا تقتصر وظيفة الاستعارة على أنها " تَهَبنا معنىً عميقاً نثق إبَّان قراءة الشعر، في أنَّه يَسْتَكِنُّ في قلوب الأشياء، ولا يستطيع العقل أن يبْلُغه... لكنَّنا نستطيع من وجه آخر أنْ نكشف وظيفةً متميَّزةً من تقييد أوابد الفكر والخيال، ذلك أنَّ النظام الاســـتعاري العام إنما يكشـــف على الدوام، علاقاتٍ جديدةً بين الأشياء، ويدْأب الشاعرُ على الكشف والتغيير من تصورات الشعراء قَبْلَه هذه العلاقات "[47].

يقول الشاعر من (بحر البسيط)[48]:

الـدّهرُ يُفجِعُ بَعـدَ العَينِ بِـالأَثَرِ فَمَا البُكَاءُ عَلَى الأَشْـبَاحِ والصُـوَرِ

أَنْهَـاكَ أَنْهَـاكَ لَا آلُوكَ مَوعِظَـةً عَن نَوْمَـةٍ بَينَ نَـابِ اللَّيـثِ والظُّفُرِ

فَقد أجرَى الشّـاعرُ فِي هذينِ البَيتينِ اسـتعارتينِ الأولى مكنيَّة والثانية تمثيلية، لِغرضَـينِ مُختَلِفَينِ، أحدُهما تَمثَّلَهُ بِقولِهِ: " الدَّهرُ يُفجِعُ..." مُصـوِّرًا الدّهرَ بِالإنسـانِ الّذي يَرزأُ غيرَهُ بالمَصـائبِ وَيُداهِمُه بِالرُّزءِ، بِمَا يملكُه مِن قُدرةٍ عَلَى ذلكَ، ومَا نَرَى الشّـاعرَ نَسَـبَ مَا ليسَ للدّهرِ إلَيهِ إلّا لِأنّ النّاسَ اعتادَتْ نِسبةَ مَا ينزلُ بِهِم مِن مَصائبَ إلَى الدّهرِ؛ لِمَا يَعرفونَهُ عَنهُ مِن التقلُّبِ وَانعدامِ قُدرةِ أحدِهم عَلَى رَدِّ مَا يَقعُ مِنهُ، وفِي طَورِ تَقلُّبِه يَعجَزُ الإنسـانُ عَن المُواجهةِ، وهذا مَا يُسَوّي بينَ النّاسِ وَبعضِهِم فِي الإصَابةِ بِمِحَنِه، فَلا فَرقَ بينَ واحدٍ مِنهُم وَآخرَ.

وظَّفَ الشّاعرُ هذه الاستعارةَ فِي هذا المَوضعِ الّذي لَا يُمارَى فِي ضَرورةِ احتياطِ الشّاعرِ لِانتقاءِ نَوعِ المَجازِ الموظّفِ فِيهِ أحدٌ مِمّن لَهُم في الشِّـعرِ باعٌ؛ لِأنّهُ مُسـتهلُّ القَصـيدةِ، ومُسـتهلُ العملِ الشِّـعريّ لَا بُدَّ أن يَعتَنيَ بِه الشّـاعرُ فوقَ مَا يَعتَنِي بِالمَقاطعِ، لِأنّهُ بوَّابةُ الولوجِ إلَى النصّ، ولِأنّهُ كذلكَ جَاءَ الشّاعرُ بِهذه الاستِعارةَ عَلى صُورَتِها تلكَ لَا لإقرارِ صورةٍ جَماليّةٍ، وتحديدِ معنًى بَديعٍ وحسـبُ، بَل لَيحتجَّ بِهَا كذلكَ عَلَى أنَّ الدّهرَ في تَقَلُّبِه وسُـرعةِ دَورانِه يَفْنِي الأشَـباحَ المَاثلَةَ كَما يُفنِي مَا خَلَّدتهُ تلكَ الأشباحُ مِن آثارٍ بَاقيةٍ فِي أعقابِهَا.

تظهر قدرتها الجمالية بوساطة التذكير بالتشبيه، إذ إنَّ الصفات التي تعقب المستعار له تأتي لا لكي تدعم المعنى، بل لكي تقف إلى جانب القرينة مدعمة إيّاها لأجل النفاذ إلى معنى، ولأجل تهميش المعنى الأول في كلمة الاستعارة، ولعلَّ هذا ما يرجّح كفة المعنى الثاني

لو بَلغتِ تلكَ الاسـتعارةُ الكِفايةَ فِي الأداءِ الوظيفيّ لِلمَعنَى المرجوّ والّذي عَمِلَ الشّـاعرُ عَلَى التّأطيرِ لهُ بِهَا، مَا كَانَ ليسعى إلَى دَعمِ الدلالةِ بحُجّةٍ وَبرُهانٍ جَديدٍ يُعضّـدُ مِن قيمةِ الحُجّةِ السّـابقةِ، فَعمدَ سَريعًا لِإتمامِ المعنَى إلَى تَعلِيقِ استِعارةٍ أُخرَى بِتلكَ الّتي أسلفتُ بيانَهَا، وذلكَ مِن خلالِ مَا يُسـمَّى فِي بَلاغةِ البَدِيعِ بِاسـمِ التّجريدِ[49]، حيثُ توجَّهَ بِالخِطابِ مِن قَولِهِ: "أَنْهَاكَ أَنهَاكَ..." وَالضَـميرُ فِي الفِعلِ المُكرَّرِ لِنَفسِـهِ، غيرَ أنّهُ توجَّهُ بِهِ لمُخاطَبٍ مَجهولٍ ليُحِيلَ المُتلقّي مِن تَصـوُّرِ الشّـاعرِ فِي هذا المَوقفِ الضّـعيفِ إلَى غَيرِهِ مِن المُخاطَبِينَ، مُنطلِقًا مِنهُ إلَى تَعليلِ اسـتِعارتِه السّـابقةِ بِتلكَ الّتي صَـوَّرَ فِيهَا وَقْعَ فِعلِ الدّهرِ بِاللّيثِ حِينَ يَضَـعُ فَريسـتَهُ بينَ أنيابِه وَأظَافِرِه، فَلا تَجِدُ لَهَا سَـبيلًا للخَلاصِ، وَهي اسـتعارةٌ تمثيلية إذ شـبّه الركونَ إلى الدّنيا بالنّومِ بين أنيابِ الأسـدِ ومخالبِهِ، وتَطرَّقَ مِنهَا إلَى أنَّ إثباتِ أنّ لِخوفِه الّذي رَاحَ يُشـدِّدُ عَلَى نَهيهِ نَفسَـهُ

بِســـببِه، فِي مَحلِّه الّذي لَا يُلامُ عَليهِ؛ ليقينيّةِ وقوعِه، وأدلُّ مَا يَذهبُ بِالقرينةِ الدّالّةِ عَلى طَلَبِ الشّاعرِ لهذا المعنَى قَولُه [50]:

فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وَإِنْ أَبْدَى مُسَـــالَمَةً والبِيضُ والسُّـودُ مِثلُ البِيضِ والسُّـمْرِ

ذلَك حيثُ شبَّه الدهر بالحرب تشبيها بليغا ؛ لما في الحياة من معاناة ومفاجآت وأخطار متوقعة وغير متوقعة، حتّى مَعَ ما قدَ يبدِيهِ تَاراتٍ مِن أنّهُ يُســالِمُ أصــحابَهُ، لِيقِفَ بِنَا عَلَى هذا الوَاقعِ المُرِّ الّذي أرادَ عكسَهُ عَلى خِطابِه، تَعزيةً لِنفسهِ فِي فَقدِ هؤلاءِ الرّجالِ الّذين فُقِدُوا فِي حَربِ المُرابِطينَ عَلى بَطليوس، ثم أرســى معنى التشــابه بين البياض والســواد في كل شــيء، وبدأ بالبياض لمحبة النفس له، ولعلّ في ذكرِهِ مع السـودِ والسّـمرِ تنوع لمصـائبِ الدنيا ومنغصـاتِها وتشابهها أمّا السعادة فواحدة، وفي تَصويرٍ لِمشهدِ البُطولَةِ الّذي لَم يَزَل يتشكَّلُ فِي ذهنِ الشّاعرِ حَصــرًا فِي ثَلاثةِ الرّجالِ الّذينَ تَعرَّضَ فِي هذه المَرثيّةِ لِرثائِهِم، يُنكِرُ عَلى غَيرِهم مِن أصــحابِ الهِمَمِ أن يُؤتَى العزمَ كَما أُتوهُ، أو أن يَحَفظَ المُلكَ كَما حَفِظُوه، أو أن يُمسِكَ السّيفَ كَما أمسَكُوا بِهِ، وَيتمثَّلُ ذلكَ بِقولِهِ [51]:

مَن لِلأَسِــرَّةِ أو مَنَ لِلأعِنَّــةِ أَو مَن لِلأَسِــنَّـةِ يُهـدِيهَـا إلَى الثَّغرِ؟!

مَن لِلظُّبَى وَعَوالِي الخَطِّ قَدَ عُقِدَتْ أَطْــــــرَافُ ألسُنِهَا بِالعَيِّ وَ الحَصَرِ!

في هذا ينعى عَلَى هذه البِلادِ بعدَ موتِ هؤلاءِ الثّلاثةِ الأبطال، أن يَكونَ حالُها مَا تَوقَّعَ أن يَكونَ، فَليسَ مردودةَ عَنها شَـرٌّ وَلا أتٍ إلَيهَا خيرٌ، وَقدَ وظَّفَ مِن الصُـورِ مَا يُستعانُ بِهِ عَلَى إظهار مثلِ هذه المَعانِي، فَاسـتعارَ الأسِـرَّةَ لِكُرسـيِّ المُلكِ مِن البيتِ الأوّلِ، كَما اسـتعَارَ الأعِنَّةَ وهي لُجُمُ الأفراسِ للفُرسانِ الأقوياءِ الذين يَمتطونَ صَـهواتِهَ فِي مَيادِينِ القِتالِ وسَاحاتِ المَعاركِ، ثُمَّ صَوَّرَ الثّغرِ لِفَمِ الجَبَلِ الّذي يُتوقَّعُ دخولُ العدوّ مِنهُ، حذفَ المُشبَّهُ بِهِ مِن كلِّ تَلك الاستِعاراتِ مُبقيًا عَلَى المُشبَّهِ فِي صُحبةِ لَازمٍ مِن لوازِمِه يَعملُ عَلَى مَنعِ جوازِ إرادةِ المعنَى الأصليّ مِن هذا الإيرادِ، وفي كلٍّ مِن هذه الاســتِعاراتِ المُتعالقةِ دليلٌ للشّــاعرِ عَلَى انتِفاءِ مَظاهرِ القوّةِ المُوفّرةِ للحمايةِ والصّــيانةِ لِهذا الوطنِ، فليسَ ثمَّةَ مَن في النّاسِ مِن بعدِ هؤلاءِ مَن يَقدِرُ عَلَى حَملِ مَســؤوليّةِ الدّفاعِ عَن البلادِ والذّودِ عَنها ذِدَّ مَن يُريدُون بِهَا الشّــرَّ، وفي تكرار " مَن" دلالة على مراجعة الأحوال، والتفكر في المآلات، فالخطبُ جللٌ، والمصـابُ عظيمٌ. والمفقودون شـأنهم شـأن في الجهادِ والدفاعِ، فهو يذكّر بمكانتِهم وأعمالِهم، وإقناعهم بذلك، فالتفكرُ في ذلك كلّه برهانٌ ودليلٌ على ما يقول.

ليسَوقَ البَيتَ الثّانِي مُؤكّدًا بِالاستِعاراتِ المُتراكِبَةِ فِي سَـابقِهِ عَلى أنَّ حَدَّ السّيفِ، والذّي عَبَّرَ عَنهُ بِـــــــ(الظُّبَى) لَيسَ لهُ مَن يُعمِلُه فِي رِقابِ الأعداءِ، مِن بعدِ فَواتِ القَادرينَ عَلى ذلكَ، لاسِــيَّما أنَّ المُرجَونَ لِذلكَ مِن الجُندِ الباقِينَ فِي أعقابِ مَن تولَّوا وَفارقوا قَد عُقِدَت ألسِــنتُهم عَن

الأخذِ بِثاراتِهم، وتلك صُـورةٌ جديدةٌ عَلَّقَ عَلَيهَا الشّـاعرُ معنًى جَديدًا مَدفوعًا إلَيهِ بِقوّةِ الشُّـعورِ بالحَسرةِ عَلى زَوالِ مُلكِ مَن يَرثيهم، وهِيَ صورةٌ بالكِنايةِ (عقدت أطراف ألسنِها بالعيِ والحصرِ)، فالرماحُ عاجزةٌ كعجزِ الإنسانِ الذي أصابَ لسانَهُ العيُّ والحصرُ، فهي استعاراتٌ متضافرةٌ مع الكناية ؛ لبيانِ الحال، دلَّ بِهَا جَمِيعًا مَعَ مَا تقدَّمَها مِن الاستِعاراتِ عَلَى أنَّ زوالَ ذلكِ مَن تعرَّضَ بِهذا النّظمِ لِرثائِهِم خلَّفَ آثَارَهُ لَيسَ فِي البِلادِ وحُسبُ، بَل كذلكَ فِي كلِّ مَا تَعوَّدَتْهُ مِنهُم مِن بُطولةٍ وَحزمٍ وَحِفظٍ للأنفسِ والمُمتلَكَاتِ.

ثُمَّ لَمَّا أرادَ الدُعاءَ لِلعبَاسِ والفضلِ فِي قَبرِهِما، بِالرّحمةِ والمنزلةِ العَالِيَةِ، ولَمَ يَكُن للشّاعرِ سبيلٌ إلَى الدُّعاءِ لهَما بِهذه الرّحمةِ الّتي يَرجوهَا لَهُما مِن اللهِ تَعالَى مُفضّـلًا فِعلَهُما حَالَ حَياتَيهِما عَلَى هذهِ الرّحمةِ، حَادَ عَن ذلكَ المعنَى؛ لِأنَّ رَحمةَ اللهِ تَعالَى لَا يَفضـلُها شَـيءٌ كثيرٌ أو قَليلٌ، فَدَعا لَهَما بِأن يَسقِيَ الغَمامُ ثَرَى قَبْرَيهِمَا، لِيُوزانَ النّاسُ بينَ سُقيَا الهَامِيَةِ لهذين القَبرينِ، وما كانا يَفعلَاهُ مِن موجِباتِ نسبةِ السّماحةِ والنّدَى إلَيهَما، فَقالَ [52]:

سَـقَتْ ثَرَى الفَضْـلِ والعَبَّاسِ هَامِيَةٌ تُعزَى إلَيْهِم سَـمَـاحًـا لَيسَ لِلمَطَرِ!

فَاستَعارَ (الهَامِيَةَ) الّتي دَعَا لَهُما بَأن تَسقِيَ قَبرَهُما، لِلرّحمةِ الّتي يَرجو أن تَتنزَّلَ عَليهِما، علَى سبيل الاستِعارةِ التّصريحيّةِ؛ إذ إنّهُ صرَّحَ هَاهُنا بِذكرِ المُشبَّهِ بِهِ وهو الهَاميةُ، وحذفَ مَا شبَّهَا بِهِ، وهِيَ الرّحمةُ؛ للسَببِ الّي أسلفتُ بيانَهُ، حيثُ لَا تَجتمعُ رَحمةُ اللهِ مَعَ ما يُريدُ الشّاعرُ أن يَجعلَهُ فَوقَهَا مِن نَدَى المَرثِيينِ، بِجامِعِ مَا بينَ سـقيَا السّـحابِ للأرضِ العَطشَـى، والرّحمةِ عَلَى الميّتِ، مِن النَماءِ والبَركةِ والسّعةِ والتّفسُّحِ فِي المَوضعِ.

يقولُ بعدَ ذلكَ مؤكّدًا عَلَى أنَّ الحَياةَ لَم تَعُد كَما كَانَت وَلا الدّهرُ عَلى حَالِه الذي اعتادَهُ مِنهُ مُدَّةَ بَقائِهِ فِي أكنافِ هؤلاءِ الرّجالِ الثلاثة [53]:

ثَلَاثَـةٌ كَـذَوَاتِ الـدّهرِ مُنـذُ نَـأَوْا عَنّي مَضَى الدَّهْرُ لَم يُربِع وَلَم يَحُر

وَمرَّ مِن كُلِّ شَـيءٍ فِيهِ أطْيَبُهُ حَتَّى التَّمتُّـعُ بِالآصَـالِ والبُكُـرِ

أينَ الجَلالُ الَّذي غَصَّـتْ مَهَابَتَهُ قُلُوبُنَا وَعُيُونُ الأَنجُـمِ الزُّهـرِ؟

فَاسـتَعَارَ الدّهرَ لِذواتِ العُقلاءِ مِن الأحيَاءِ، حيثُ شـبّهَهُ بِمَن عَادَلَهُ أمرٌ مِن الأُمورِ، فشمَّرَ عَن سَاقَيهِ مُسرعًا فِي طَلَبِه، وَتَنازَعَهُ فِكرٌ تِجاهَ مَسألَةٍ فَهمَّ لتحصِيلِهَا، فَلَم يَقِف لَينظُرَ وراءَهُ يَرَى مَا خلَّفَ مِن آثارٍ سَـيِّئةٍ أو حميدةٍ، وَلم يَعُد بعدما انصـرفَ فارًّا مِن موضِـعِه الذي هو فِيهِ، وفيهِ حُجّةٌ عَلَى إسراعِ الدّهرِ بِهِ إلَى الضّـعةِ والشّـرّ والشّـقاءِ بعدَ الرّفعةِ والخيرِ والدّعةِ، بعدَ فقدِه لهؤلاءِ، كأنّهُ أرادَ القولَ بِأنَّ مَا كانَ الخيرُ – فِي وجودِهم – مِن سَـببِهم تَولَّى بِتَولّيهِم وَانتهَى بِنهايتِهِم.

ثمَّ يذهبُ فِي مذهبٍ آخرَ مُعَلِّقًا باستِعارَتِه هذي استعاراتٍ أُخرَى، مِن البابِ نَفسِهِ، فَهِيَ استعارةٌ مَكنيّةٌ مُشبَّهُها بَاقٍ فِي الكلامِ، ومَا شُبِّهَ بِهِ مُعوَّلٌ عَلى فهمِه مِن مُتضمَّناتِ المُشبَّهِ وقرائنِ الحالِ الّتي أوردَ فِيهَا الشّاعرُ الأبياتُ، فقدَ شبَّهَ أطايبَ الأشياءِ الّتي مَرَّتْ بِهِ عَلى طُولِ أيّامِ عُمرِهِ بِمَا لَهُ سَاقٌ يَمشِي عَلَيهَا مُتوجِّهًا نحوَ مَا ليسَ للشّاعرِ فِيهِ رَغبةٌ، فكانَ مُعوَّلُه فِي إظهار مَلامحِ القصدِ مِن هذه الاستِعارةِ بِالفِعلِ (مَرَّ) وهو مِمّا لَا يَجرِي عَلَى غيرِ الأحياءِ مِمَّا لَهَا القُدرةُ عَلَى المُرورِ، وهي مِن الاستِعاراتِ التّبعيّةِ المُؤدّيةِ إلَى الجَمعِ بينَ صَورَتِي الحَيّ وَغيرِ الحيّ، لِمَا بينَهُما مِن الرّبطِ المَعنويّ المُرادِ بِهِ التّشخيصُ وَإخراجُ غيرِ الحيّ مخرجَ الحيّ؛ لِإشباعِ النّصّ بالحيويّةِ الدّالّةِ عَلى قُوَّةِ الحُجّةِ وجوهرِ الغَايةِ.

مِن القَبِيلِ نَفسِهِ أيضًا، تَشبيهُه العزّةَ الّتي تنجَلِي فِي طِباعِ النّاسِ عَلَى أيّامِ هؤلاءِ الرّجالِ، والّتي غَرسُوا نَبتَتَهَا فِي نفوسِهم بِـ(الإباءِ)، مِن قولِهِ [54]:

أَيْنَ الإبَاءَ الَّذِي أَرْسَوا قَواعِدَهُ عَلَى دَعَائِمَ مِن عِزٍّ وَمِن ظَفَرِ؟!
أيْنَ الوفاءُ الذي أصفوا شرائعَهُ فلمْ يردْ أحدٌ منهم على كَدَرِ؟!

حذفَ المُشبَّهَ بِهِ (العِزَّةَ) مُستَبقِيًا المُشبَّهَ (الإبَاءَ) والاختِلافُ بينَ نَوعِ الاستِعارةِ وسَابقَتِهَا في البيتِ الذي فَوقَ ذلكَ، أنَّ التّشبيهَ هُنا وَاقعٌ عَلى مَحذوفٍ هو المُشبَّهُ بِهِ، انطِلاقًا مِن أنَّ الشّاعرَ جعلَ الإباءَ مَادَّةً تُجلِّي عَن نَفسِهَا فِي طِباعِ النّاسِ الّين غرسَ الرّجالُ الثّلاثةُ فِي نفوسِهِم العِزّةَ فَارتفَعَتْ حتّى صارَتْ إباءً عَلَى الظُّلمِ وقبولِ الضّيْمِ، فَكانَ الإباءُ مِن سَببِ فِعلِ هؤلاءِ بِالنّاسِ، فَهُم مَن عوَّدَ الخَلْقَ عَلَى السّورةِ ضِدَّ العُدوانِ وَعدمَ الرّضا بِالهَوانِ وإلْفِ الخُمولِ والخُنوعِ، عَلَ حِينِ أنّهُ أتَى عَلَى ذِكرِ الجَلالِ فِي البيتِ الّذي سَبقَ هذا البَيتَ، مُشبَّهًا بِهِ لَا مُشبَّهًا.

بينَ اِستعارتِه فِي هذا البيتِ وسَابقِه عَلاقةٌ قويّةٌ وَضعَتْ المعنَى فِي إطارٍ لَم يَكُن لَيَصِلَ إلَيهِ الشّاعرُ مَا لَم يُعَلِّق الاستِعارةَ فِي هذا البيتِ بِالاستِعارةِ التّصريحيّةِ فِي سَابقِه، فَقد أرادَ الظُّهورَ فوقَ مَا تعوّدَ عَلَيهِ الشُّعراءُ مِن نِسبة العِزّةِ والشّرفِ للمرثيّ وحَسبُ، فَأتَى بِمعنًى طَريفٍ يحتملُ تلك الدّلالةِ وَأخرَى تُظهِرُ أنّهُم مِن الرّفعةِ والجلالِ بِمكانٍ دَفَعَهُ إلَى تَصويرِ أعيانِهِم بِعَينِ الجَلالِ، كمَا مَنحَهُم القُدرَةَ عَلَى تَوصيلِ أثَرِ هذا الجَلالِ إلَى غيرِهِم مِن النّاسِ، بِمَا يَجعلُ مِنهُم أعزَّاءَ يَأبَونَ الظُّلْمَ والرُّكونَ لِغيرِهِم.

ثُمَّ يَنسَلُّ فِي دلالةٍ جديدةٍ إلَى استِعارةِ (العِزّ، والظّفَرِ) لِلشيءِ المَاديّ الّذي يَحتاجُ إلَيهِ البَانِي فِي دَعمِ وَتعزيزِ مَبنَاهُ، وَحيُ شبّهَ (الإباءَ) بِالمَبنَى لَزِمَهُ أن يَضعَ حِيَالَ ذلكَ المَبنَى الرّكائزَ الّتي يَنتصِبُ عَلَيهَا لِتقويَتِهِ وَتعزيزِه؛ كَي لَا يَتقادَمَ وَلَا يَهوِي، فَأتَى بِالعِزّ والظّفَرِ مُستعارًا، بِتشبيهِه بِالدّعائمِ القَوِيَّةِ، الّتي تَعمَدُ المَبانِي وَتقوّيهَا: كي تقومَ عَلَى أساسٍ مَتِينٍ وعِمادٍ رَكِينٍ، فَقالَ: "

دَعائِمَ مِن عِزٍّ وَمِن ظَفَرٍ" وهِيَ فِيمَا يَظهرُ مِن ظَاهرِ الأداءِ الدّلاليّ لهَا استِعارةٌ تَمثيليّةٌ، غَيرَ أنَّ صَورتَي الحَالتَينِ فِيهَا خَافِيَتَينِ، وهُما عَلَى نحوِ مَا يَلِي:

قَدَ شـبَّهَ الشّـاعرُ الإباءَ الّذي غَرسَ الرّجالُ الثّلاثةُ بِذرتَهُ فِي نَفوسِ النّاسِ كَي لَا يَألَفُوا الخضـوعَ لِغيرِهِم بِالمَبنَى المُحتاجِ لِدعامَاتٍ تُقوّيهِ، فَلا يَهوِي مِن ضِـعفٍ، ولَا شـكَّ فِي أنَّ الاسـتِئناسَ بِمثلِ هاتَينِ الصُّـورَتينِ فِي مثلِ هذا الموضـعِ يُؤدّي إلَى فَهمِ مُرادِ الشّـاعرِ مِن البيتِ فهمًا وَاعيًا، حيثُ لَم تَقِف بِه القصـديّةُ عِندَ حدودِ مَكنيّةِ الاسـتعارةِ المُنبثقةِ مِن اسـتعمالِهِ لِكَلِمَةِ الإباءِ فِي مَعنَى العِزّةِ والشّرَفِ، بَل تَجوزَهَا إلَى طَلَبِ تَمثيلِ حالِ المرثيّ في نفسِهِ وفِي غَيرِهِ.

ثُمَّ إنّهُ، ومثله ما كان في البيتِ الذي يليهِ من جعلِهِ الوفاءَ كالماءِ الذي كان صـافيًا في عهدِهِم لم يرِدْ أحدٌ منهم على كدرٍ، وفِي بيتٍ يُشـبِهُ مَا يَصـلحُ أن يَكونَ خِتامًا للدّلالاتِ المُترامِيةِ الّتي أحاطَ بِهَا هذا الخِطابَ الرّثائيَّ، يسـتَعِيرُ صِـفةَ الليلِ، وهِيَ الظّلامُ لِلمَصـائبِ، ثُمَّ يَسـتَعِيرُ صِـفَةَ مَا يَقومُ بِنفسِـهِ فِي القُدرةِ عَلَى الإفضَـاءِ إلَى شَـيءٍ سِوَى الّذي هو عليهِ، لليلِ، وذلكَ مِن قولِهِ[55]:

مَن لِي، وَلَا مَن بِهِم إنْ أَظْلَمَتْ نُوَبُ وَلَم يَكُن لَيلُهَا يُفْضِـي إلَى سَـحَرِ

مُعبّرًا عَن مَدَى مَا أصَـابَهُ مِ، حَالةِ الفَزَعِ وَالتّرويعِ، الّتي جَلَّى عَنهَا بِسؤالِهِ عَمَّن يَكونُ لهُ مِن بَعدِهم، فَيحتوِي همَّهُ ويُخفِّفُ عنهُ وطأةَ مُصـابِهِ إن أصـابتْهُ النُّوَبُ، ودَنَتْ مِنهُ المصَـائبُ، والحالةُ أنّهُ قَد أدركَ حقيقةَ غَيابِهِم وَعلمَ أنّهُ لَا مَدرَكَ لهُ وَلا مَلاذَ وَقدَ حلَّ بِهِم مَا أدَّى بِهِ بِإلى هذا الإحسَـاسِ، وهو هُنا فِي تَقريرِهِ لِهذا المَعنَى يَذهبُ مذهبًا قَربَ التّناولِ بِاسـتِعمالِه اللّفظِ دَارجَ الاستِعمالِ، حيثُ شدَّدَ عَلى جَعلِ الاستِعارةِ قَريبةً مُتناولةً؛ لِاقترابِ سهولتِها فِي الغايةِ مِن الدلالةِ الّتي أرادَ التّعبيرَ بِهَا عَنهَا، ولِتَقريبِ المعنَى مِن المُتلقّي، فَالمقامُ مَقامُ شَـجنٍ يَسـتوجبُ ظهورَ المعانِي ووضوحَ الصُّوَرِ.

ولِذا أطلَقَ صـورتَهُ الاسـتِعاريّةَ الّتي شـبّهَ فِيهَا المَصـائِبَ بِاللّيلِ بِجَامعِ مَا بينَهُما مِن نَتاجاتِ الظُّلْمِ والظُّلَمِ، هذا الإطلاقَ بِتشـبِيهِه للمَصـائبِ بِهَا عَلى سـبيلِ الاسـتعارةِ المَكنيّةِ، وذلكَ أدلُّ عَلى المقصـودِ مِن الذّهابِ بِهذه الاسـتعارةِ فِي سَـبِيلٍ سِـوَى الّذي حقَّقَ بِهِ المعنَى، وَقرَّبَه لمُخاطبِه بِهِ، وفي الاسـتعارةِ مِن قولِهِ: " وَلَم يَكُن لَيْلُهَا يُفْضِـي إلَى سَـحَرٍ" بِمَا يَقومُ بِنفسِـهِ مِمّا لَا يَحتاجُ إلى مَا يُقِيمُه، سببٌ فِي استِنطاقِه الاستِعارةَ عَلى تلكَ الصُورةِ السّهلةِ المُيسورةِ.

وفِي المعنَى نَفسِهِ يعملُ ابنُ عبدونَ عَلَى إنزالِ الصّبرِ مِن نفسِه مَنزلًا يرضَاهُ ويَرضَى بِهِ عَمَّا أَلَمَّ بِهِ مِن نوازِلِ الدّهرِ، فَيعمَدُ إلَى استِعارةٍ جَديدةٍ تَستهدِفُ إظهار هذه الدّلالةِ، قائلا [56]:

مَن لِي وَلَا مَن بِهِم إنْ أَطبَقَتْ مِحَنٌ وَلَمْ يَكُنْ وِرْدُهَـا يَـدْعُوا إلَى صَـدَرِ
عَلَى الفَضَـائِلِ إلَّا الصَّـبْرَ بَعْدَهُمُ سَـلَامُ مُـرتَـقِـبٍ لِـلأَجْـرِ مُـنـتَـظِـرِ

يَرْجُوا عَسَـــى، ولَـهُ فِي أُختِهَا أَمَلُ والـدَّهْرُ ذُو عُقَـبٍ شَـــتَّى وذُو غِيَرِ

وقد استلهَمَ مِن تلك الحادثةِ نزعةَ الصّبرِ الّتي أحسَّ أنّهَا مَفروضةٌ عَليهِ، حتَّى مَعَ انعدامِ طَاقتِهِ عَلى تَحمُّلِهَا، فَراحَ يَنشُـدُ راحتَهُ ويَسـتهدِي إلَى الصّـبرِ بِمَا يُدرِكُه مِن أنّهُم لَن يَعودوا إلَى الدُّنيا، ولَن يَجمَعَهُ بِهم بَعدَ ذلكَ جَامعٌ، فَابتدرَ الثَّلاثةَ الاسـتِعاراتِ المَكنيّةِ الّتي جَعلَ مِنهَا محورَ دورانِ قضـيّتِه عَن الصّـبرِ فِي تلكَ الأبياتِ بِهذه الاسـتِعارةِ الّتي حَدَّهَا بِالسُّـؤالِ الاسـتِنكاريّ مِن قَولِهِ: مَنَ لِي، وَلَا مَن بِهِم..." وهِيَ تَحمِلُ دلالةَ سَـــابِقتِهَا مَعَ مَا بينَهُما مِن الاختلافِ بينَ كِلَا المُستعارِ والمُستعارِ لَهُ، غَيرَ أنَّ قَضيَّةَ الإزاحةِ وَاحدةٌ، فَهو يَرغبُ فِي حَملِ نفسِه عَلى الصّبرِ؛ لِمَا يَعلمُه مِن أنّهُ مُرغمٌ عَليهِ وَلا يَدَ لَهُ بِمَا يُريدُ.

إلى أن يُقيمَ المعنَى هُنا بِمَا يَدفعُ عَنهُ شُـبهةَ الرّضـا بِما وَقعَ للرّجال الثّلاثةِ مِن القَتلِ، وَيدرَأُ عَن ذِهنِ مُناوئِيه فِي الغَرضِ فِكرةَ اللّومِ والعِتابِ عَلى بَذلِ نَفسِـهِ دُونَ حصـولِ مَا لَيسَ إلَى تَحصـيلِه أو حصـولِه مِن سَـبيلٍ، فَيسـتَعِيرُ صِـفةَ العاقلِ طَالِب السّـلمِ للفضـائِلِ، بِقولِهِ: "عَلَى الفَضَـائِلِ... سَلَامُ مُرتَقِبٍ لِلأَجرِ..." مُصوّرًا لَلفضائلِ بِمَا ذكرتُ، إذ لَا يُسلَّمُ عَلَى الفضَائلِ لِأنّهَا حَالةٌ مَعنويّةٌ تَنِمُّ عَن حُسنِ خُلُقِ فَاعلِهَا، وَليستْ شَخصًا يَطلُبُ سَلامًا فَيُسلِّمَ عَليهِ الشّاعرُ عَلى حَالتِهِ الّتي تَدعوهُ للالتزامِ مَعَها بِقِيَمِ السّـلامِ، بَل إنَّهُ يُشـبّهُهَا بِمَن تَنطلِي عَليهِ صِـفاتُ العُقلاءِ، تَهيئةً لمُخاطبِهِ لِاستقبالِ المَسألةِ عَلى الوجهِ الّذي يُعلِمُه بِهِ أنّهُ رَضِـيَ بِمَا وقعَ لَهُ، وَلكنّ رِضـاهُ عَنهُ إرغامًا؛ لِعدمِ إتاحَةِ البَدائلِ.

من هذا النّوعِ مِن الاستِعاراتِ أيضًـا، استِعارتُه لِـــ(عَسَى) مِن قَولِهِ: " يَرْجُو عَسَى..." مُحِيلًا بِهَا إلَى أنّ صَـبرَهُ موقوتٌ بِهذا الرّجاءِ مَوقوفٌ عَلى أملِهِ فِي أنْ يَحِيقَ بِمَن قَتلوا أحبَّاءَهُ مَا جَنَتْهُ أيدِهِم فِي حقِّهِ، وَ(عَسَى) مِن أفعالِ المُقاربةِ، وَجَميعُ الأفعالِ وَالأحرفِ وَغيرِهَا مِن الأدواتِ، مِمّا لَا يَقعُ عَلَيهِ شَـيءُ وَلا مِنهُ شَـيءٌ مِن فِعلِ الآدميينَ، ولكنّهُ شَـبَّهَ (عَسَـى) وَأُختَهَا (لَعلَّ) الّتي مِن أخواتِ (إنَّ) النّاصـــبةِ، بِمَا تُفيدُه الأخيرةُ مِن الرّجاءِ، بَالشّـــخصِ الّذي تَتعلّقُ بِهِ الآمالُ فِي إنجازِ أمرٍ، لَأنَّ هذه الأدواتُ مِن عَملِهَا الدّلاليّ ذلكَ، فَكانَ رجاؤه لِهَا كَرجائِهَا بِهَا، ولذا جَازت الاستِعارةُ فِيهَا.

لا أرَى إلّا أنّهُ كَانَ عَلى فَهمٍ وِدرايةٍ بِأنَّ هذا البيتِ مِمّا لَا يَصـــلحُ إلّا أن يَقعَ فِي مَوقِعِه هذا مِن المَقطعِ الخِتاميّ مِن القَصيدةِ، لِأنّهُ أشْكلُ بِمقامِ الخِتامِ مِن غيرِهِ، ولِأنَّ الرّجاءَ لَا يَكونُ إلّا فِي أعقابِ شـيءٍ يَقعُ عَليهِ، فَأجرَى فِيهِ الاستِعارةَ عَلى شَاكلةِ مَا بيَّنتُه؛ احتِجاجًا عَلَى أنّهُ لَم يَزلَ فِي فُسحةٍ مِن أمرِهِ يَختارُ مَا يشاءُ، وَأنّهُ اختارَ لِنفسِهِ طريقَ الصّبرِ أملًا فِي تَحقُّقِ مَا يَرُومُه بِهِ رَجاءً فِي أن يكونَ مُسلّيًا لهُ عَمَّا يَلقاهُ مِن لَومِ اللائِمِينَ عَلى بذلِه مُهجتَهُ بُكاءً عَلى هؤلاءِ الرّجالِ.

في تَشـبيهِه لِنَزعةِ الرّجاءِ النَاتجةِ عَن (عَسَـى) وَعَن (لعلَّ) اسـتعارةٌ تَصـريحيّةٌ أتَى فِيهَا بالمُشبّهِ بِه المُلحِقِ بِالنّفسِ وازِعَ الصّبرِ والتسلّي عَمّا يُلاقِيه مِن الأسَى، وَالمُشبّهُ بِهِ فِي صورتِنَا تلكَ فِعلٌ جَامدٌ يُؤطِّرُ لعَلاقةِ الاسـتِعارةِ (التّبعيّةِ) بِالاسـتعارةِ التّصـريحيّةِ الّتي عَمِلَ عَلى دعمَ الدلالةِ بِهَا، وقَد عالَقَ فِيهَا بينَ استعاراتٍ عِدّةٍ لِمُناسبتِهَا جمعيًا لِمَعنَى طَلَبِ الصّبرِ عَلى مُصابٍ مُعَيَّنٍ قَدَّمَ لهُ بِالبيتِ الأوّلِ مِن القصـيدةِ؛ لِيكونَ خِتامُه مُلائمًا ومُنسـجِمًا معَ مَا راحَ يَختمُ بِهِ فِي تلكَ الأبياتِ، حتّى يَقومَ الاحتجاجُ بِالاسـتعاراتِ المُتعالقةِ جَميعًا عَلى السّـامعِ في تَأديةِ المعنَى بِطريقِ الاسـتِدلالِ المَانعِ مِن تَحويلِ سِـامعِه إلَى الرّدِّ أو التّوبيخِ؛ لِمُتابعتِه الدّولةَ الجديدةَ عَلى حِسابِ مَن رثاهُم الشّاعرُ بِهذه الأبياتِ، **وبذلك تترسخ جمالية المشهد في ذهن المتلقي بفضل توظيف الفعل الحجاجي.**

المَبحَثُ الثّالث: الاستِعارَةُ التّصرِيحِيّةُ

تعرف بأنها الاستعارة المبنية على حذف المستعار له (المشبه) وذكر المستعار منه(المشبه به) [57]، وتمتلك بنية جمالية تشـع بشـحنة دلالية مؤثرة في نسـيج النص، وتتوشـح الوصـف المشـترك بين ملزومين مختلفين في الحقيقة، فتسـبغ المعنى الأقوى على الأضـعف ؛ لكي يخرج في نقشة جميلة على وجه التسوية [58].

لذا فإنَّ معظم العلوم اللغوية وغيرها تقر بدور الاسـتعارة الحجاجية في تقويم الخطاب وسـبك دليلِهِ؛ حيثُ ركّز كل علم على جانب معين من جوانب تأثير الاسـتعارة، مما جعلها تحتل مكانة محترمة بين سـائر الخطابات الإنسـانية التي تعتبر الشـعرَ أنموذجها الفريد[59].لذلك تميل الاستعارة التصريحية إلى الوضوح ؛ فالمتلقي يدرك أبعاد الصورة رغم إضمار المشبَّه ؛ فمدلول المشبَّه واضح من خلال السياق ؛ لذلك عُدَّ هذا النوع من الاستعارة أبسط مظهر يُولَد به التصوير الاستعاري[60]

ممّا استَعانَ بِه ابنُ عبدونَ عَلَى النُّهوضِ بِحجَّتِه فِيمَا لَحِقَ بِدولةِ ثَلاثةِ الرّجالِ الذينَ أنزلَهُم فِي رثائِه إيّاهُم مَنزلَةَ الفريسـةِ الّتي أناخَتْ بِهَا اللياليِ ركابَهَا، فَأزلَّتْهَا بعدَ عِزٍ وَأهبطَتْهَا بعدَ رِفعةٍ، استعارَتُه فِعلَ الجُيوشِ المُتزاحِمةِ وَالجُنودِ الأقوياءِ لِفِعل الليالِي وَتقلُّبِهَا بِأهلِهَا، حيثُ لَم تَرعَ لهؤلاءِ عهدًا، فَكانُوا مِنهَا بِمنزلةِ غيرِهِم مِمَّن أنزلَتْ بِهِم نَوازِلَهَا، فَقالَ [61]:

كَمْ دَولَـةٍ وَلِيَـتْ بِـالنّصـرِ خِـدمَتَهَـا ... لَمْ تُبْقِ مِنهَـا، وَسَـلْ ذِكْرَاهَـا مِن خَبَرِ؟!
هَـوَتْ بِـدَارا وَفَـلَّـتْ غَـربَ قَـاتِـلِـهِ ... وَكَـانَ عَضْـبًـا علـى الأمـلَاكِ ذَا أَثَرِ
وَاسـتَرجَعَتْ مِن بَنِي سَـاسَـانَ مَا وَهَبَتْ ... وَلَـمْ تَدَعْ لِبَنِي يُونَانَ مِن أَثَرِ

الضّميرُ فِي المُستعارِ مِنهُ رَاجعٌ فِي كلّ إلَى الليالِي الّتي فَعلَت فِعلتَها بِسَابقِيهِم مِن ملوكٍ وُمُمتَلكَاتٍ وُممالِكَ، فَلمَ يَقوَ عَليهَا مَن كَانَ أشدَّ مِنهُم قَوّةً وَأعظمَ بَأسًا، مِمّا رَاحَ يُورِدُ أسماءَهُم الّتي لَا يَجهلُها النّاسُ قَاطبةً، مِن أمثلةِ بَني سَاسانَ وَعَادٍ وَثمودَ وَطسم وَجديسٍ.

إنَّ استقامةَ المعنَى مَعَ الحُجَّةِ الّتي ذكرَهَا الشّاعرُ بإهلاكِ الدّهرِ لهؤلاءِ جَميعًا، معَ مَا لا يتَّفقُ عكسُه مَع إبقائِهِ عَلَى مُلكِ أصحابِهِ الّي زالَ بسببِ تسلُّطِ جُيوشِ المُرابطِينَ عَلى بَطليوسَ فِي ذلكَ الزّمنِ، لَا يَتأتَى بِمفردِه، بَل كانَ لا بُدَّ لهُ مِن دعامةٍ تُقيمُ هذه الحُجّةَ عَلى وَجهِهَا الذي يَنسجمُ معَ طَبيعةِ النّظمِ، فَراحَ يُحقّقُ تلكَ المُعادلةَ بِذلكَ التّسانُدِ الّي صَنَعهُ الشّاعرُ بينَ حِجاجِيّتِه عَلَى هَلاكَ الأقوامِ السّابقينَ، وَالصُّورةِ الجماليّةِ الّتي تجعلُ مِن هذه الحُجّةِ أشدَّ ارتباطًا بِطبيعةِ النّظمِ، فَصوَّرَ الليالِي الّتي تَولَّت تحت الأُممِ وهيَّأت للدولِ في السّابقِ أسبابَ النّصرِ والظّفرِ وقِيامَ المُلكِ، بِالجُيوشِ المحشودةِ لِعَكسِ ما جاءَ بِهِ في هذا المعنَى السّابقِ.

ومَا ذا إلّا ليكونَ أجدَى في التّعزيةِ وَأنفعَ فِي تَحمُّلِ تَبِعَاتِ المُصابِ بعدَ تَحقُّقِ الزّوالِ والاستبدالِ، فَخرَّجَ الاستِعارةَ مخرجَ التّصويرِ العكسيّ، حيثُ جعلَ مِن العَظيمِ بِمحلّ المُشبّهِ المَحذوفِ، وَأبقَى عَلَى المُشبّهِ بِهِ مُقترِنًا بِدليلِ وجودِ المُشبّهِ الّذي حذفَهُ، إمعانًا فِي التّصديقِ، وَتحقيقًا لِلغرضِ، وقد انطلقَ يُعدّدُ مِن أدلّةِ قُدرةِ الليالِي عَلَى إزالةِ سُلطانِ هذه البِلادِ وتلكَ الأُممِ فِي تَالِي البيتِ الأوّلِ مُعوّلًا عَلَى عددٍ مِن الاستِعاراتِ الحِجاجيّةِ، حيثُ أعادَ هَيمنةَ الليالِي عَلَى هذه الأُممِ مِن خلالِ إيرادِه لِمَا فَعلتْهُ بِهَا وَأنزلتْهُ عَليهَا مِن النّقمِ بعدَ أن كَانت سَببًا فِي قِيامِ مُلكِهَا وَتقويةِ سُلطَانِهَا، فكانَ تَأريخُه لِبعضِ الأحداثِ الضّمنيّةِ الّتي عَمدَ إلَيهَا تَعضيدًا لِهذه الحُجةِ كَإيرادِه لِمَا وَقعَ لِكلّ مِن السّاسانيينَ وعاد وثمودَ وغيرِهِم، دعمًا وتعزيزًا لِهذا الغَرضِ الّي جَاءَ بِهِ تَعزيةً لِنفسِه في فَقْدِه لِأصحابِهِ الّين تَعرَّضَ لَهُم فِي هذا النّصّ بِالرّثاءِ بعدَ قَتلِهِم علَى يَدِ جيوشِ المُرابطِينَ.

ذهبَ إلَى أبعدَ مِن ذلكَ الوقتِ الّذي نَسبَ فِيهِ القوّةَ وُمعامِلاتِ الزّهوِ والازدهارِ إلَيهَا، فذكرَ بعضَ مَا يُستنَدُ إلَيهِ في تَحصيلِ المَجدِ الآنِي بِذكرِ المَجدِ المَاضِي الذي حصَّلَهُ أجدادُهم فِي العربِ قَاطِبةً، فراحَ يَستعِيرُ السّيفَ لِلقوّةِ الفاتكةِ الّتي كَانَ علَيهَا الأجدادُ، وكيفَ أنّهُم صَالُوا في مَيادِينِ القِتالِ، ومَعَ ذلكَ لَم يَقدِرُوا عَلَى مُدافعةِ الليالِي فِي عُدوانِهَا عَلى مُلكِهِم، وِمن ثمَّ يَتأتَّى لَهُ توطينُ القَارئِ عَلى غَايتِه المَنشودةِ مِن نَدبِ هؤلاءِ وكيفَ أنَّ لهُم فِي التّاريخِ مَا يَبعثُ عَلى الحسرةِ عَلى فَواتِ مُلكِهِم وَزوالِ سُلطانِهم.

كانَ مِمّا حقَّقَ بِهِ الوعيَ النصيَّ مِن الصُّوَرِ أن عَبَّر بِالهِبةِ مِن قولِهِ: " واَسْتَرْجَعَتْ مِن بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبَتْ..." عَن اقتِناصِ الليالِي لِمَا ووهبَتْهُ لبَنِي سَاسانَ فِي فَترةٍ مِن فَتراتِ التّاريخِ، حَيثُ لَم يَكُن مَا حَشَدَتْهُ لهم الليالِي بِطولِ الدّهرِ مِن النعمِ والهِباتِ إلّا وهمًا عَاشُوا فِيهِ ردحات

مِن الزّمنِ، ثمَّ سـريعًا مَا اسـتردّتْهُ مِنهُم بَعدَ أمنِهم لَهَا وَاطمئنانِهِم لأنّها لَن تَثِبَ عَليهم مرّةً أخرَى، حيثُ كانت حِيازَةً غَنِموهَا لِوقتٍ، فَاستعارَ هذا اللفظَ المُفردَ لِمعنًى جَامعٍ، ضـمَّ تَحتَهُ معانِيَ كثيرةً ودلالاتٍ مُختلفةٍ، ولكنَّهُ أرادَ الاحتجاجَ عَلى قوّةِ هؤلاءِ فَعبَّرَ عَمّا أُخِذَ مِنهُم بِالقُوَّةِ بِمَا يُشـــيرُ إلَى نَقيضِ ذلكَ المعنَى، فَكانَ قولُه: "مَا وَهَبَتْ..." دَليلٌ عَلَى قِصَـرِ مُدَّةِ غَلَبةِ السّاسـانيينَ وحصـولِهِم مِن الليالِي عَلَى مَا يشـــتهونَ، وَأنّ مَا حازُوه لَم يَكُن لِيَمكُثَ بينَ أيدِيهم مُدَّةً كافيةً يُمكنُ أن يُقالَ معَ تلكَ المدَّةِ أنّهُم انتصرُوا أو ظفَرُوا بِمجدٍ مُقيمٍ، وقَد وُفِّقَ فِي استِعارتِه هذه أيَّمَا تَوفِيقٍ، لَتشدِيدِه بِهَا عَلَى أنَّ مَا تحصَّلَ لِهذه الأممِ السّابقةِ لَم يَكُن إلّا عَطيّةً اغتنموهَا لِوقتٍ مُحددٍ، وأنّهَا سَريعًا مَا سـتزولُ بِزوالِ أسـبابِهَا، وَبانقضَـاءِ وقتِهَا؛ لِأمنِ تلكَ الأُممِ مِن فَتكِ الزّمنِ ودورَةِ الليالِي بِهَا، وهذا أبلغُ مَا يكونُ فِيمَا يُعزِّي بِهِ نَفسَـهُ ويُحرِّضُ بِهِ غيرَهُ عَلَى ألّا يَشـقَّ عَلَى نفسِـهِ فِي بُكاءِ زائلٍ أو نَعي مَيّتٍ؛ لِأنّ كلَّ مَن عَلى وَما عَلَى الأرضِ مُعرَّضٌ لِمَا تعرَّضَت لهُ الأُممُ السّابقةُ.

لَم يَكُن أدلَّ عَلى مُرادِ الشّـــاعرِ هُنا مِن أن يَأتِي بِهذا المعنَى مَشـــمولًا فِي اســـتِعارتِه التّصريحيّةِ الّتي شَبَّهَ فِيهَا مَاغَنِمَهُ السّاسَانِيُّونَ – باعتبارِ أنّهُم عِبرةٌ لهُ فِي مَقتلِ أصحابِهِ عَلَى يَدِ المُرابطينَ – بِالهِبةِ الّتي وهبتْهَا الليالِي لَهُم تَبرُّعًا وَطواعِيةً؛ لِاستِردادِهَا وقتمَا أرادَتْ، وكيفَ أرادَتْ فِي ظلِّ سُلطانِهاَ عَليهم، ذلكَ السُّلطانُ الّذي لَا يُبارَى ولَا يُمكِّنُ مِنهُ عدوًّا.

ومِن التّصريحيّةِ تَشبيهُ الشّاعرِ لثَلاثةِ الرّجالِ الذين يَرثيهمُ، بِـ(الجَلالِ)، مِن قولِهِ[62]:

أيْنَ الجَلالُ الَّـذِي غَصَّـــتْ مَهَـابَتَـهُ قُـلُـوبُـنَـا وعُـيُـونُ الأَنْـجُـمِ الـزُّهْـرِ

جَاعِلًا فِي هذا البيتِ مِن مَرثيّهُ عَينَ (الجَلالِ)، لَأنَّ الجَلالَ مِن سَـــببِ وِجودِهِ وَظهورِه عَلَى النّاسِ، فَلمَّا غَابَ هؤلاءِ غابَ الجلالُ بِغيابِهِم، وَالحَديثُ هُنا فِي الاسِـــتعارةِ التّبعيّةِ أيضًـــا، ذلَكَ أنّ الشّاعرَ أجرَى الاستِعارةَ فِي الاسمِ الجَامِدِ، فَهوَ وَإن كَانَ مِن أسماءِ المَعانِي، إلّا أنّهُ يَظلُّ عَلَى جمودِهِ لِصـراحتِه فِي بَابِ الإسـميّةِ، وَقدَ أوردَهُ الشّـاعرُ عَلَى سـبيلِ الاسـتِعارةِ التّصـريحيّةِ مُشبّهًا مُمدوحَهُ بِهِ، فَحذفَ المُشبَّهَ مُبقِيًا عَلَى المُشبَّهِ بِهِ، وهو الجَلالُ مِن قَولِهِ: " أيْنَ الجَلالَ..." فَإنَّ سَـــؤالَ الشّـــاعرِ عَن الرّجالِ الثّلاثةِ الّذين يَتعرَّضُ فِي مَنظومتِهِ هذي لِرثائِهِم، لَا عَن عَينِ الجَلالِ، إذ إنّ الجَلالَ يَتنزّلُ مِن هؤلاءِ تنزُّلَ النَّتيجةِ مِن السّببِ.

ومِن اسِـتعاراتِه المُفردةِ المُجراةِ فِي الجَامدِ المُؤوَّلِ بِالمُشـتقّ، جريًا عَلَى عَادةِ العَربِ فِي التّصويرِ الاستِعاريّ بِهِ لِكلّ مَا يستَعظِمُونَهُ قَولُه [63]:

وَيـلُ أُمِّـهِ مِن طَلُوبِ الثَّـأرِ مُـدْرِكِـهِ مِنْهُم بِأُسْـــدِ سُـــرَاةٍ فِي الوَغَى صُـــبُرِ

وفِي استِعارةِ الأُسْدِ لِلعظيمِ الشّـأنِ، القويّ الشّـكِيمةِ مَرجعيّةٌ عربيّةٌ قَديمَةٌ جرَت بِهَا عَادةُ الشُّـــعراءِ فِي موطنِ الحَسْـــمِ وإنجازِ التّاراتِ فِي خَوضِ الأهوالِ، وهُنا يَسُـــوقُ ابنُ عبدونَ هذه الاســـتعارةَ لِيُنجزَ بِهَا دلالةً أرادَ بِهَا أن يُتمَّ المعنَى عَلى الوجهِ الّي يُثبِتُ بِهِ لهؤلاءِ الرّجالِ الثّلاثةِ

أنَّهُم كَانوا عَلى ثَغرٍ يَطلبُهم مَن يعَلَمُ أنّهُ لَن يُلحِقَ بِهِم الأذَى؛ لانتفاءِ قُدرتِه عَليهِم، غَيرَ أنّ استهواءَ الخُدعِ لَهُم هو مَا أوقَعَهُم فِي بَراثنِ هؤلاءِ، وقَد قدَّم شَاعرُنا لِهذه الاستعارةِ عَلى سبيلِ التوطئةِ بِالبيتِ الّي يَسبقُ ذلكَ، مِن قولِهِ:

كَانُوا شَجَى الدّهرِ فَاسْتَهْوتْهُمُ خُدَعُ مِنهُ بِأحْلَامِ عَادٍ فِي خُطَى الحَضَرِ

مُجريًا تَشْبيهَهُ لَهُم هُنَا بُالأسدِ السُّراةِ عَلَى وتيرةٍ وَاحدةٍ مِن البيتِ السّابقِ، غيرَ أنّهُم كانوا كذلكَ حينَ لَم تَكُن الخُدعُ لِتَنطَلِيَ عَلَيهِم، أمَّا بعدَ انطلاءِ حِيَلِ العدوّ عَليهِم فَلم يَبقَ مِمّا كَانُوا عَليهِ مِن القوّةِ إلّا الذّكرَى الُمنبئةِ بِهَا والمُحدِّثَةِ بِذلكَ.

هذا مَا دعَاهُ إلَى استِعارَةِ الأُسدِ لهؤلاءِ، مُشبّهًا إيّاهُم بِالأُسدِ، عَلى سبيلِ الاستِعارةِ التّصريحيّةِ، الّتي حذفَ أحدَ طَرفَيها وَهوَ المُشبَّهَ، مَع إبقائِه عَلى المُشبّهِ بِهِ، للمُبالغةِ في الصّفةِ، وهِيَ مِن نَوعِ الاستعاراتِ (الأصلِيّةِ)، فَإجراؤُه لَهَا في الاسمِ الجَامدِ هوَ مَا جعلَهَا أصليّةً، ولعلّهُ طمِعَ فِي تَعطيلِ هذَا الإطلاقِ عِندَ المُتلقّي؛ كَي لا يَنصرفَ ذِهنُه إلى الأُسدِ مُباشرةً، بَل إلَى مَا اتّصَفتْ بِهِ مِن نعوتِ القوّةِ والشّجاعةِ وعدمِ التّراخِي عَن طَلَبِ الثّأرِ، وذلكَ مَا يُقوّي مِن الدلالةِ، ويجعلُهَا بِالمحلِّ الّذي لا يَحيدُ بالمُتلقّي عَن إطلاقِه لصِفاتِ الأُسدِ عَن هؤلاءِ الرّجالِ، **ويظهر الفعل الحجاجي بقوة في النَّص، فالمتلقي حسب هذه الاستعارة يتلقَّى خطاباً فيه إعلان عن مدى شجاعة الممدوح الذي يخافه أصحاب الشجاعة و البأس، و بذلك يكون في الخطاب طاقة تأثيرية.**

المَبحَثُ الرابع: الاستِعَارَةُ التّمثِيلِيّةُ

يخلو هذا النمط الاستعاري من حذف المشبه أو المشبه به كما في النمطين السابقين، لكنه يقع في التركيب لا في المفرد، أي أن التركيب مستعمل في غير دلالته الأصلية ؛ و ذلك للمشابهة الحاصلة بين الموقفين، و قد سميت هذه الاستعارة بالتمثيلية تنويهاً بعظم شأنها، و كأنّ غيرها من الاستعارات ليس فيها تمثيل(64)؛ فهي من أدق البلاغة الحجاجية في تضاعيف نصوص الشاعر ابن عبدون عبرت من خلال التأويل الاستعاري الحجاجي، وتوصيلها للمتلقي في أبهى صورةٍ متى ما وجد ذلك الإقناع الحجاجي بها ضرورياً و مؤثراً في المتلقي، و كأنها الهدف الذي يقطف به مبتغاه.

ثُمَّ انبرَى فِي أُسلوبٍ تَحذيريٍّ يُقيمُ بِه الحُجّةَ عَلَى نفسِهِ، فَينهاهَا عَن عَن أن تَأتِيَ فِعلَهَا السّالِفَ، فَتُصابَ بَالخَيبةِ إثرَ مَا قدَ يقعُ لَهَا مِن أنواعِ المُصائبِ الّتي لَم تَكُن مُهيَّئةً لَهَا وَلا مُتحيّطةً لَنزولِهَا بِساحَتِها، فَيستعيرُ صُورةَ الكائنِ الّذي مِن شَأنِه النّومُ للرّاحةِ واليَقظةُ للكَسْبِ والمَعاشِ، فَيقولُ(65):

فَلَا تَغَرَّنَّكَ مِن دُنْيَاكَ نَومَتُهَا فَمَا صِنَاعَةُ عَينَيْهَا سِوَى السَّهَرِ!

مَا لِلَّيَالِي أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَنا مِن اللَّيَالِي وَخَانَتْهَا يَدُ الغِيَرِ

فِي كُـلِّ حِينٍ لَهَـا فِي كُـلِّ جَـارِحَـةٍ مِـنَّـا جِـرَاحٌ وَإِنْ زَاغَـتْ عَـنِ الـنَّـظَـرِ
تَسُـــرُّ بِـالشَـــيءِ لَكِنْ كَي تَغُرَّ بِـهِ كَـالأَيْمِ ثَـارَ إِلَـى الجَـانِـي مِـن الزَّهَرِ

مُعَالِقًا بينَ عَدَّةِ اسِـتعارةٍ تَجمعُها اسـتِعارةٌ وَاحدةٌ مَركزيّةٌ تُعتَبرُ هي النّواةُ الأصـيلةُ الّتي انبثقت عَنها تَابِعَاتُها مِمّا وَلِيَتْهَا، وجمِيعُها تَنِمُّ عَن ذعرِ الشّـاعرِ مِن الأيّامِ، واحتياطِها مِنهَا ومِمّا قَد تُنزِلَهُ بعدَ هذا المُصـابِ الّذي كَانَ سَـببًا فِي أنّ يَتنبّهُ لِحَوادثِ الليالِي وَما تُوقِعُه بِالنّاسِ غَفلةً مِن غيرِ سَـابقِ مَوعدٍ، فَهمَّ أوّلًا بِتَصـويرِ اللّيالِي حَالَ هَدأتِها وَسـكونِها بِالنّائمِ الّذي يَرتاحُ النّاسِ لِنمِه؛ لِاعتيادِهم الظُّلمَ مِنهُ، فَكانَ نومُه لَهُم رَاحةً وَسـكينةً، وتلكَ مِن الاسـتِعاراتِ التّمثيليّةِ، الّتي شـبّهَ فِيهَا ابنُ عبدونَ حالةً بِحالةٍ، وصـورةً تَامةً بِصـورةٍ تَامَّةٍ، ثُمَّ بعدُ جَعلَ لتلكَ اللّيالِي عَينًا، والأصـلُ أنّ تُوصـفَ بِنقيضِ ذلكَ؛ لِعِلمِ الإنسـانِ بِأنّ الظّلامَ أعمَى، وهو تَعبيرٌ يَعكسُ مدَى مَا يُعانيهِ النّاسُ فِي الظّلامِ مِن العَشَـى وقِلَّةِ الإبصـارِ، ولكنّ الشّـاعرَ أصَـابَ بِنَقيضِ مَا هو معلومٌ مِن عَمَى الليالِي بِوصفِه لَهَا بِأنَّ لَهَا عَينًا مَعنًى دَقيقًا استعارَ فِيهِ العَينِ النّائمةَ نَومًا للنّائباتِ الّتي تُغافِلُ الإنسـانَ فِي بَعضِ أحوالِه لِتَنقضَّ عَليهِ انقضَـاضَ اللُّيوثِ عَلَى طَرائِدِهَا، فَمثَّل الليالِي فَي هذه الحَالةِ مِن التّغافلِ وَالسّكونِ بِالمُفترِساتِ الّتي تتغافلُ حِينًا مِن أجلِ إعادةِ الكرّةِ فِي الانقضَاضِ عَلى الطّرائدِ، وهي أيضًا مِن بَابِ التّمثيليَّاتِ مِن الاستِعاراتِ؛ فالشاعر لم يعمد إلى هذه الاستعارة الحجاجية إلا لثقته البالغة بأن الاستعارة في هذا الموضـع من السياق تكون أبلغ من الحقيقة، و أقوى إقناعاً، و أكثر تأثيراً في نفس المتلقي، فأراد الشـــاعر من هذه الاســـتعارة أن يلفت انتباه المتلقي.

أمّا قولُه: " مَا لِلَّيَالِي أقَالَ اللهُ عَثْرَتَنَا..." ففيهِ مَجازٌ مُرسـلٌ، لِأنَّ العَثراتِ مِن أسـبابِ الليالِي، وجمالُ هذه الجملةِ الدعائيةِ الاعتراضـيةِ (أقال اللهُ عثرتَها) لا يخفى في زيادةِ وضـوحِ المعنى و بهائِهِ، كَما أنَّ فِيهِ اسـتعارةً أعملَهَا الشّـاعرُ لِلبرهنةِ بِهَا على أنَّ شَـيئًا يُرامُ وتُرامُ بِه السّلامةُ مِن الليالِي الّتي صَـوَّرَهَا بِمَن يُخشَـى مِن عَواقِبِهِ لِعدمِ أمنِهِ، ولنَقضِـهِ مَواثيقَهُ، ثمَّ انثالَت عَليهَا دعواتُهُ بِما يَعلمُه عَنهَا مِن أنَّ لَهَ مِن الوقعِ عَلَ نفسِـهِ وعَلَى غَيرِهِ مَا لِلّظَالِمينَ الّي تُخشَـى بَوائِقُهُم عَلى الخَلْقِ، فَشبَّهَا بِهم فِي ظِلُمِهم، وهكذا أوصل الشاعرُ من خلال هذه الحجة التمثيلية الفكرةَ التي كانت تجول بخاطره؛ حيثُ راحَ يَدعوا عَليهَا و يَدعو النّاسُ عَلى الظّالِمينِ بِأنْ تَخونَهَا يَدُ الأحداثِ والغِيَرِ، وَأن تُوقِعَ بِهَا مَا تُوقِعَهُ بِالنّاسِ مِن الخِيانَاتِ.

مُنسَلًّا مِن تِلكَ الاستعاراتِ إِلَى أخرَى، يُعلِّلُ بِهَا سَببَ دُعائِهِ عَلَى الليالِي بَزوالِها وَخيانةِ الغِيَرِ لَهَا، وُمبرزًا لِأثَرِ الهزيمةِ النَفسيّةِ الّتي ألحقتْهَا بِهِ مِن نَكبتِه في بَعضِ مَنَ أحبَّ، جَاعلًا لَهَا صـورةً بَشـريّةً ذات بِنيةٍ وَعقلٍ يُفكّرُ ويُدبّرُ للانتقامِ وَالتّجريحِ بَل والقتلِ إذا اسـتَدعَى الأمرُ ذلكَ، فَقالَ: (66).

فِي كُـلِّ حِينٍ لَهَـا فِي كُـلِّ جَـارِحَـةٍ مِنَّـا جِرَاحٌ وَإِنْ زَاغَـتْ عَنِ النَّظَرِ

ذلكَ حيثُ صوَّرَهَا بالجارحِ الّذي مَا أن يكادُ بنقضُّ عَلَى فريستِه، لَا يَترُكُ فِيهَا عضوًا مِن غيرِ أن يُلحِقَ بِهِ ضَـررًا بِغرضِ قتلِهَا وافتراسِـهَا، أو التّشـفّي فِيهَا بعدَ مَوتِهَا، حتَّى وَلو لَم تَكُن لهُ فِيهَا حَاجةٌ، غيرَ أنَّ قُوَّةَ حُجَّتِه الّتي سَـاقَ تلكَ الاسـتعاراتِ مِن أجلِهَا قَضَـتْ عَليهِ بِأن يَخلقَ فرقًا بينَ فِعلِ الجوارحِ بِفرائِسِهَا، وفِعلِ الليالِي بِمَن تَقصدُهم مِن النّاسِ، فَكانَ لليالِي مِن سُوءِ الفِعلِ مَا ليسَ يَعمدُ إلَى القَيامِ بـهِ جارحٌ، ذلكَ أنّ الجوارِحَ لَا تَفتِكُ إلّا بِظـاهرِ الفَرائسِ، أمّا الليالِي فَإنّهَا تُعمِّقُ مِن الجَراحاتِ في الظّاهرِ والَباطنِ، وذلك التّصـويرُ أدلُّ عَلَى المَعنَى المُرادِ وَأنهضُ بِحُجّةِ الشّـــاعرِ فِي التّنبِيهِ عَلى غَلَطٍ اقترَفَه قبلَ ذلكَ، وَيُوجبُ علَى نَفسِـــهِ الاحتياطَ مِن أن يَقعَ فِيهِ مُستقبلًا، وقد مزجَ الشّـاعرُ هُنا بينَ كلِّ تَلكَ الاسـتِعاراتِ المُتعالِقةِ مُكوّنًا مِنهَا اسـتِعارةً تسـتهدفُ غَايةً واحدةً تَصِـفُ حالتَهُ وتدعمُ لَدَى مُتلقّيهِ فِكرتَهُ بِمَا لَا يَدعُ عِندَهُ فِي نفسِـهِ فسـحةً لمُعارضـتِه، وقَد هَيمنت اسـتِعارَتُه الأخيرةُ عَلى هذه الدّلالةِ، بِإقرارِه الّي لَا يقبلُ فيهِ جَدلًا؛ لِإدراكِ مُخاطَبِيهِ أنّ حقيقةَ ما وجَّهَ إليهِ مِن مَعانٍ دفينةٍ فِي بيتِه الأخيرِ الّي صـوَّرَ فِيهِ الحَياةَ بِمَن يَسـعَى إلَى إلحاقِ المضرَّةِ بِهِ غيرَ عابئٍ بِحالِهِ، المُوجِبِ لِضَرورةِ العملِ عَلى أن يَسرَّهُ.

ثمَّ نراهُ يضـربُ مثلًا بِالحَفائرِ الّتي تُنصَـبُ شِـراكًا فِي الأراضِـي لِتَتَعثَّرَ فِيها المُفتَرِسـاتُ والوحوشُ، لليالِي وهِيَ عَلى تلكَ الحالةِ الّتي أوقعَت بِبَنِي عَبَّادٍ عَلَى يَدِ المُرابِطِينَ حينَ اجتاحُوا بَطلَيُوسَ فَقتلُوا مِنهَا خِيرةَ مَن فِيهَا، ومِن تلكَ الخِيرَةِ مَن أتَى عَلَى ذِكرِهِم فِي رِثائِهِ لُهم مِن هذه القَصيدةِ، فقالَ (67):

وَأَعْـثَـرَتْ آلَ عَـبَّـادٍ لَـعًـا لَـهُـمُ بِـذَيـلِ زَبَّـاءَ وَلَـم تَـفِـرْ مِـن الـذُّعْـرِ

فَقد نَراهُ هُنا فِي هذا البَيتِ، وَبعدَ أن اَتَّخذ سَـبيلَهُ إلَى تَعدِيدِ مَا تُلحِقُه الدُّنياَ بِأهلِهَا وَاللّيالِي بِمَن لَا يتحرَّزُ مِنهَا مِن المَكائدِ التّي مَتَى حَاقَتْ بِهِم ألقت بهم فِي كلِّ اتّجاهٍ، يُخرجُ اللّيالِي مَخرجَ المُحارِبِ القويّ والنّدِّ الذي لَا يُمكِنُ أن يَقِفَ فِي وجهِهِ بَنو عَبَّادٍ، وذلكَ لِإرادِتِه نِســـبةَ مَا تحقَّقَ للمُرابطِينَ عَلَيهِم مِن انتصـــاراتٍ إلَى الليالِي، فَهِيَ الّتي وَفَّرت لَهُم فِي أوَّلِ الأمرِ أســبابَ النَّصـــرِ على أعدائِهِم، ثُمَّ عَادَتْ لتتكثُ العَهدَ بينَهَا وبينَهُم، مُنتقِمةً مِنهُم بِإعادةِ الكرَّةِ لِأعدائِهِم عَلَيهم، فِي مشـهدٍ جديدٍ مِن مَشاهدِ التَحوُّلِ. مذكرا بما آل إليه حكم بني عباد في إشبيلية على يد المرابطين عام 484هـــ في حدث شاع وانتشر، واستخدام ابن عبدون للأصوات الحلقية (الهمزة والعين والهاء) دليل على عظم المصيبة وصعوبتها كصعوبة مخارج تلك الأصوات الحلقية.

مما اســتعانَ الشّــاعرُ به من الإزاحاتِ البَلاغيّةِ مِن أنواعِ التّصـــويرِ البَيانيّ اســتعان بِالاســتِعارةِ التّمثيلِيَّةِ، حيثُ يَذهبُ إلَى عقدِ مُوازنةٍ بينَ حالِ اللّيالِي فِي تَقلُّبِهَا وَتحوُّلِهَا بِالنّاسِ مِن نَصرٍ إلَى هزيمةٍ، بِالجَيشِ الّذي لَم يُكتَب لَهُ الظَفَرُ بِبَني عَبَّادٍ فِي أوّلِ الأمرِ لِقوّتِهِم، ثَمَّ لَمّا تَيسّرَ

لَهُ الانقضاضُ عَلَيهِم بَعدَ توفُّرِ أسبابِ القُوَّةِ اَنقضَّ فَكانت توثُّبُهُ الغَايةَ المَأمولَةَ، حِينَ استطاعَ أن يُحصِّلَ مَا كَانَ يَطمعُ فِيهِ مِن زمنٍ.

أطَّر الشّـــاعرُ بِهذه الاســـتعارةِ لِلَونٍ فَريدٍ مِن ألوانِ الحِجاجِ، يَقطعُ بِها الطّريقَ عَلَى مَن عَسـاهُ تُسـوّلُ لَهُ نَفسُـه أن يَقِفَ مِن كلامِه مَوقِفَ المُدافعِ لهُ، ذلكَ حيثُ سَـاقَ الكلامَ عَبرَ صُـورةٍ خَياليّةٍ مُشــتَملةً عَلَ مَا يُبرزُ البُرهانَ عَلَ صِــحَّتِه وَســلامةِ مَنطقِهِ، فَلا غَرو أن تزولَ دولةُ بنِي عبَّادِ عَلى يَدِ المُرابِطينَ، وصَـــنيعَةُ الليالِي أن لّا تُبقِي عَلَى دَارٍ إلّا أتت عَلَيهَا بعدَ عُمرانِهَا بِالخرابِ، وَبعدَ سُـــلطانِ أهلِهَا بِالذِّلَّةِ والخُنوعِ والهَوانِ، وفِي نِســـبتِه مَا حلَّ بِدولةِ العَبَّادِيينَ إلَى الليالِي دَليلٌ عَلَى أنَّهُ استصـغرَ واحتقرَ شَـأنَ مَن جَاسُـوا فِي دِيارِهِم مِن المُرابِطَين، عَن أن يَكونَ لَهُم دَولةٌ عَلَى العَبَّادِيينَ، فَكانت استِعارَتُه المُجراة فِي اللّيالِي طَريقا لِهذا الاستِدلالِ.

ومِن تَمامِ الاســتِدلالِ عَلَى مَا يؤيّدُ بِهِ كلامَه مِن الأســانِيدِ، يُقدِّمُ لِهذا البَيتِ بِعِدَّةِ أبياتٍ أُخَرَ، تَحمِلُ طَابِعَ الاسـتِعارَةِ نَفسَـهُ، كَأنَّه أرادَ التّوطِئَةَ بِهَا لِمَا سَـيُحاكِي بِه حَالَ مَن قدَّمَ لَهُم مِن المُلوكِ والأمراءِ فِي دُولٍ مُتعاقبةٍ سَابقةٍ عَلَى زمنِ دولةِ بَنِي عَبَّادٍ فِي غيرِ تلكَ البُقعةِ مِ، الأرضِ، فقالَ(68):

وَمَـا وَفَّـتْ بِعُهُودِ المُســتعِينِ وَلَا ... بِـمَـا تَـأكَّـدَ لِـلـمُـعـتـزِّ مِـن مِـرَرِ
وَأوثَـقَـتْ فِـي عُراهَـا كُـلَّ مُـعتَـمِـدٍ ... وَأشــــرَقَـتْ بِـقَـذَاهَـا كُـلَّ مُـقـتَـدِرِ
وَروَّعَـتْ كُـلَّ مَـأمـونٍ وَمُـؤتَـمَـنٍ ... وَأسْــلَمَـتْ كُـلَّ مَنصــورٍ وُمنتَصِــرِ

وَإنَّمَا يَعِني مِن هذا الإيراد الّذي جَمعَ عددًا مِن الأسـماءِ المُقصـودةِ لِذاتِهَا؛ لِتمثيلِ كلِّ اسـمٍ مِنهَا عُنوانًا مِن عناوينِ القُدرةِ والبُطولَةِ الّتي تَصـــمد أمامَ حادِثاتِ الليالِي، أنّ مَا وقعَ لِلعبادِّيينَ هو مَا وقعَ لِمَن كانَ عَلى شَـــاكِلَتِهم مِن مُلوكِ الطوائف والأُممِ السّـــابقةِ عَليهم، **وبذلك تظهر جمالية المشـهد في ذهن المتلقي بفضـل توظيف الاسـتعارة التمثيلية، التي لولاها لأصـبح الكلام مجرد وصف عابر خالٍ من الجمال الذي يُسَلِّمُ المتلقي بيد التأثر أو الاقتناع.**

ومِن هـذا النّوعِ مِن الإزاحـاتِ الّتي عوَّلَ عليهَـا ابنُ عبـدونَ في إظهـارِ جلالِ هؤلاءِ وعظمَتِهم، مِن خلالِ مَا ألصـــقَهُ بِهِم مِن صِـــفاتِ العِزّةِ الّتي تُنتِجُها القدرةُ الكامنةُ فِي قوّتِهِم قولُه(69):

كَانُوا رَواسِـــيَ أَرْضِ اللهِ، مُنذُ مَضَـــوا ... عَنْهَـا اَسْـــتَطَـارَتْ بِمَن فِيهَـا وَلَم تَقَرِ

وذلكَ حينَ صـوَّرَهُم بِالرّواسِـي وهِي الجبَالُ الّتي نَعتَهَا القُرآنُ بِذلكَ فِي بَعضِ آيَاتِهِ، بِقولِ المولَى تَبارَكَ وَعلَا: " وَفِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ...الآية " نَعتًا لَازمًا لَهَا، تَكادُ لَا تُذكرُ الجِبالُ إلا بمُصـاحبتِهِ، حتَّى كَأنَهُ عَلَمٌ عَلَيهَا لَا صِـفةٌ لَهَا، وَقدَ صَـادرَ الشّـاعرُ بِهذا النّعتَ عَلَى كلِّ مَن قدَ تُسوّلُ لَهُ نفسُه وصفَ أحدٍ مِن النّاسِ بِالجِبالِ الرّاسيةِ؛ لِأنّهُ لَم يَقتصِر عَلَى وصفِ مَن يرثيهم

بِالرّواسِـي، بَل أدَّى بِهِ ذلكَ النّعتُ إلى القولِ بِنقيضِـه معَ توفُّرِ سَـببِ سَـوْقِ هذا النّقيضِ، حيثُ حكمَ عَلَى الأرضِ وَمَا عَليهَا مِن الأثقالِ بِالاستِطارةِ، بِمجرّدِ زَوالِ أسبابِ استقرارِها، فَزوالُ الأرضِ نَاتجٌ مِن نواتجِ زَوالِ هذه الرّواسي.

في التِفافِهِ حولَ تلكَ الغايةِ، وتقديمِهِ لِهَا فِي صُورةٍ حِجاجيّةٍ مُفحِمةٍ يَأتي بِها مضمَنةً فِي الإزاحةِ البَلاغيّةِ بِالاستِعارةِ التّبعيّةِ الّتي أجرَهَا فِي الاسمِ المُشتقّ (رَوَاسِيَ) بِتصويرِهِ ثَلاثةَ الرّجالِ الذينَ يَرثيهم بِها فِي القوّةِ والمَتانةِ والصّـلابةِ فِي أنفسِـهِم، مِن وجهٍ، ومِن الوجهِ الآخَرِ يُصـوّرُهم بِهذا ولكن مُقارنةً بِغيرِهِم مِمّن عَدَّهم الشّـاعرُ يَبابًا ولا يؤثِّرُ بقاؤهم فِي اسـتقرارِ الأرضِ واسـتمرارِ الحياةِ عَلَيهَا، كَما أنّنا كذلكَ يُمكنُنا انتزاعُ دلالةِ كَونِ هؤلاءِ سَـــببًا فِي دَعمِ وجودِ النّاسِ عَلَى الأرضِ؛ بِمَا يَعكسُه بقاؤهُم عَلى الأرضِ لَهُم مِن الطُّمأنينةِ والسّكينةِ.

وبالنّظرِ إلَى تَلكَ الصُّـورةِ نَقِفُ عَلى أنّهَا مِن بَناتِ الاسـتِعارةِ المُفردةِ فِي ظَاهرِ تَكوينِهَا، وبتدقيقِ النّظرِ لَا نكادُ نجد له وجهًا في الاستِعاراتِ المُفردةِ، بَل هِي مِن النّوعِ التّمثيليّ الذي شَدَّد فِيه الشّـاعرُ عَلى ضَـربِ مَثَلٍ بِهؤلاءِ، فشـبّهَهُم وهُم فِي مُلكِهم يُقيمونَ موازِينَ القِسـطِ بينَ النّاسِ بِالرواسِـي الّتي تُثقِلُ الأرضَ، وَتَحفظُ تَوازنَهَا، وَتدعو النّاسَ إلَى الاطمئنَانِ بِهَا، غيرَ أنّ الصُّـورةَ التّمثيليّةَ تحتاجُ فِي استِبطانِهَا إلَى إعناتِ خَاطرٍ، إذ إنّهُ مِن غيرِ المُتصوَّرِ أن يَكونَ هؤلاءِ رَواسيَ تَزولُ الأرضُ بِزوالِهِم مَا لَم يَتّسِع الأمرُ لِأن تَجولَ أيديهم فِيمَا لَهُم عَليهِ سُلطانٌ، وكونُ سُلطانُهم – سَـاعتئذ كانوا يَحكمونَ البِلادَ – ممهُورًا بِرضَـا النّاسِ عَنهُم وحُبِّهِم فِيهم، كَانت الاسـتِعارةُ عَلَى الوجهِ الّي مَثَّلْنَا لَهُ.

في الصّـــددِ ذاتِهِ يُؤطِّرُ لعلاقتِهِم بِالنّاسِ – زمَنَ حَياتِهِم، وسُـــلطانِهِم عَلَى البِلادِ – مِن خِلالِ مَلمَحٍ إزاحيٍّ جديدٍ يُفرِغُ فِي قَالبِهِ شُـحنةً جديدةً مِن البراهينِ الحيّةِ عَلَى أنّ مَن تولَّى رِثاءَهُم بِالاعتِمادِ عَلى جَلِيلِ النُّعوتِ الّتي شـخّصَ بِهَا حالةً كانوا عَليهَا زمنَ مُلكِهِم أحقُّ مَا يكونونَ بِهذه النُّعوتِ بل وأولَى النّاسِ بِهَا، فقالَ [70]:

كَـانُوا مَصَـــابِيحَهَا فَمُذ خَبَوا عَثرت هَـــــذِي الخَلِيقَةُ يَـــــا للهِ فِي سَدَر

فَبضَـــربِه لَهُم مَثلًا للنورِ الّذي يَهدِي النّاسَ فِي حَوالِكِ الأيّامِ، حُجّةٌ عَلَى أنّ مَن جَاءَ بَعدَهُم لَيسَ لَهُ أن يَقومُ فِي مَقامِهِم فِي هذا الشّـــأنِ، وَلا أن يَفعلَ فِعلَهُم، لَأنَّ مَا كَانوا يَقومونَ بِهِ هِدايةً للنّاسِ، ولَا يَكُون أحدُهم كذلك مَا لَم يَكُن مَهديًّا فِينَفسِهِ، ثمَّ يَتسنَّى لَهُ أن يَهديَ غَيرَهُ ويُبصّرَهُ بِمواقعِ الرُّشدِ والصّوابِ مِن حَياتِهِ،، والاستِعارةُ فِي هذا البيتِ عَلَى شَاكلَةِ مَا طَالعْنَاهُ فِي سَابقَتِهَا، وَإن اختلفَ الوجهُ فِي التّصـويرِ، لرغبتِه فِي ضـمِّ هَاتينِ الاسـتِعارتَينِ بَعضِـهما إلَى بعضٍ؛ طَلَبًا لِتأديةِ كلِّ واحدةٍ مِنهما مَعنًى مُستقِلًّا بِذاتِه، وَرغبةً فِي تَسانُدِ الاستِعارَتينِ لِتُؤدّيَا مَعًا مَعنًى واحدًا، يُؤذِنُ هذا المعنَى بِأنّهم قدَ بَلغُوا مِن الكَمالِ مَا مكَّنَ لَهُم فِي القُوّةِ والعِنايةِ بِالأرضِ وَمَن عَلَيهَا،

فِي الوقتِ الّي لَم يتجرّدُوا فِيه مِن نَزعةِ الهِدايةِ وتبصـيرِ الخَلقِ وَإرشَـادِهِم إلَى صَـلاحِهِم، ليجتَمِعَ فِيهم السُّلطانُ والرُّشدُ.

إيرادُه البيتَ فِي مَعرضِ تَشبيهِ هؤلاءِ الرّجالِ بِالنُّورِ الّذي خَبَا وَانطفَأَت جذوةُ نُورِ الأرضِ بِاختِفائِهِ، مُشعِرٌ بِأنّ النُورَ الّي كَانت تَتمتّعُ بِهِ الأرضُ والهِدايةُ الّتي كَانَ يَتقاسَمُها العِبادُ جُزءٌ مِن نُورِهِم، فهُم مَبعثُ الفَيضِ وَمصـدرُ النُّورِ بذلكَ، وذلكَ أدْخلُ فِي الدّلالةِ عَلى رِفعةِ مِنزلَتِهم وَانتِفاءِ الإمكانِ فِي تَعويضِهِم بِمَن يَقومونَ مَقامَهُم.

وللاسـتعارة اسـتراتيجية، وفاعليَّة تعمل على خلخلة بنية توقع المتلقي في سـياقات الكلام مما جعلها تسـهم في تشـكيل بنية دلالية جديدة محملة بالجمال المدهش الذي يسـتميل القارئ إلى الاقتناع.

الخَاتِمَةُ

في نِهايةِ هذه الدّراسـةِ يُمكنُ الوقوفُ جَلِيًّا عَلَى كثيرٍ مِن النّتائجِ الّتي شَكَّلَتْ عُمقَ العَملِ عَلَى هذا النصّ البَارِعِ فِي رِثاءِ رِجالٍ مَا تعرَّضَ الشّاعرُ الأندلسيُّ ابنُ عبدونَ لِرثائِهِم، إلّا جَاعِلًا مِن مَرثيّتِه صـورةً تَعكسُ تَاريخًا لِبعضِ الوقائعِ الّتي – رَأَى فِي نَظَرِه – أنّهَا شَـكَّلتْ مَرحلةً جديدةً فِي البِلادِ، أشـارَ بِمجموعِ أبياتِ قَصـيدتِهِ إلَى مَا التَفَّتْ عَليهِ مِن زَفراتٍ يَنفثُهَا الشّـاعرُ؛ ألَمًا عَلَى مَا فاتَ مِن عهودِ السّلامةِ والاستقرارِ، فَكانَ مِن أبرزِ مَا توصَّلَتْ إلَيهِ تلكَ الدّراسةُ الآتِي:

أولًا: قُدرةُ الشّاعرِ ابنِ عَبدونَ عَلَى تَشكِيلِ وَرسمِ لوحةٍ تَاريخيّةٍ لِمرحلةٍ مِن مراحلِ التحوُّلِ التّاريخيّ فِي الأندلسِ، بِسـببِ هذه النّكبةِ الفَادحةِ الّتي حَلَّتْ بِالبلادِ تَحتَ نِيران الحُكمِ المُرابطيّ بَعدَ مقتلِ الرّجالِ الثّلاثةِ الّذينَ صَرَّحَ بِذكرِهِم فِي أوّلِ أبياتِ قَصيدتِه.

ثانيًا: تعدّ هذه القَصـيدةِ درَّةً مِن دُررِ الرّثاءِ العربيّ فِي مَرحلةٍ انتقاليّةٍ بَعيدةِ الأثرِ فِي نفسِ شَاعرِنَا، مِن خلالِ تَحويلِهِ لِنَمطيّةِ الرّثاءِ المَألوفةِ فِي شِخصٍ مَا بِعينِه أو أشَخاصٍ عِدّةٍ إلَى الحديثِ عَن مَملكَةٍ زَالَتْ بِزوالِ مُلوكِهَا، وذلكَ بُعدٌ إضَـافيٌّ يَحتَسَـبُ لِهذا الشّـاعرِ فِي مَرثيّتِه مَوضوعِ دَراسَتِنَا.

ثالثًا: انسَجامُ خِطابيّةِ الاستعاراتِ الّتي أجَّجَ بِهَا الشّاعرُ جَذوةَ التلقّي فِي مُجملِ قَصيدتِهِ فِي نَفسِ مُخاطبِيهِ بِهَا، مَعَ الحِجاجيّةِ الّتي اَتَّخذ مِنهَا سَـبيلًا لِلاسـتِدلالِ عَلَى كلّ عُنصـرٍ مِن العَناصـرِ المُحتاجةِ لإقامةِ البُرهانِ عَلى دقّةِ تَناولِهَا لَهَا، ونَحَا بِهَا طَرِيقًا جَامِعًا فِي الاسـتِدلالِ عَلَى معنًى كُلّيٍّ أنتجَهُ بِتَعليقِ بَعضِ الاسـتِعاراتِ بَاسـتعارةٍ مُوطِّئةٍ مَركزيّةٍ جَمعَ تَحتَهَا هذه الاستعارات المُتعالقة.

رابعًا: بُعدُ الشّـاعرِ عَن نَمطيّةِ البُرهانِ والحِجاجِ المُتوخّاةِ فِي الشّـعرِ المَدائحيّ والشّـعرِ السياسيّ، والشّعرِ الهِجائيّ، إذ إنّ ثلاثةِ هذه الأنواعِ هي الأشدُّ حاجةً إلَى إعمالِ الشُّعراءِ للحِجاجِ

فِيهَا؛ تحقيقًا لنتيجةٍ، أو تأكِيدًا عَلى غايةٍ محدَّدةٍ، مُحيلًا إلَى إعمالِ الحِجاجيّةِ الاســـتِعاريّةِ فِي الرّثاءِ، وهذا مَا لَم يُؤلَف فِي صِناعةِ الشِّعرِ الرثائيّ إلّا قَلِيلًا.

خامسًا: إحالةُ الشّاعرِ بَعضَ مَا لَيسَ لغيرِهِ بِهِ يَدٌ مِن طَريقتِه المُعتادةِ مَن أوّلِ النّظمِ إلَى آخرِهِ، إلَى وَجهٍ لَا يَنتظمُ فيهِ الغَرضَـينِ كلامٌ وَاحدٌ، حيثُ عَدَّد مِن أغراضِ القَصـيدةِ بِمَا لَا يَتَّسـعُ لِغيرِ المُتمرّسـينَ فِي الشِّـعرِ الأندلسـيّ أن يَقِفوا عَليهِ أو أن يَكونَ لَهُم إلَيهِ سَـبيلٌ فِي فَهمِهِ وَإدراكِ مَغزاهُ، فَقَدَ تحوَّلَ – اختلاسًـا – مِن غَرضِ الرّثاءِ الصّـريحِ فِيمَن نوَّهَ بِذكرِهم وَأشـادَ بِفعالِهم، إلَى غَرضِ الشّــعرِ السِّــيَاســيّ حينَ اســتعارَ لِحوادِث الزّمنِ وَنوائبِ الدّهرِ فِعلَ الجُيوشِ الّتي عثت بِالبَلادِ.

سادسًا: إكثارُ الشّاعرِ مِن الصُوَرِ الاستِعاريّةِ المُتضمّنةِ لِحشدٍ مِن الحُججِ والبَراهينِ عَلَى مَا رَغِبَ فِي إقرارِهِ وَتحقِيقِه فِي ذِهنِ مُتلقّيهِ، وسَــوقِهِ للدّلالاتِ مَصــحوبةً فِي هذهِ المَنظومةِ بِمَا يقوّي مِن دَافعيّةِ النّظمِ، ويعضّــدُ مَذاهِبَهُ فِيمَا أنزلَهُ – فِي نَظَرِه – مَنزلَ الإخبارِ الّي لَا يَحتمِلُ التّكذيبَ، وحيثُ لَم يَكن لَهُ مَا يُعزّزُ مِن مَذهبِه فِي ذلكَ سِـوَى أنْ يَأتِيَ بِهِ مَشـمولًا بِالبُرهانِ جَعلَ مِن استِعاراتِه فِي هذا النّصّ مَنطقًا مُتكلّمًا عَن نَفسِهِ بِهِ.

ســابعًا: وقد تمثَّل الشّــاعرُ عددًا مِن الاســتِعاراتِ فِي هذا النّصّ نَوَّعَ فِيهَا بينَ المَكنيّةِ، والّتي بَلغَ عددُ تَوظيفَاتِه لَهَا فيهِ 8 مرّاتٍ بِنســبةٍ بَلغتْ 48 %، مِن بيتَيهِ الأوّلَينِ المَرقومَينِ فِي القصيدةِ بِـ 1، 2، و3، و50، 51، 56، 59، 60، 61، 62، 68، 70، 71، 72، والتّصريحيّةِ، وَالتي شـكّلَتْ وَقْعَ الدّلالةَ بِمَا يَعدِلُ 4 مرّاتٍ بِنسـبةِ 24% مِن جُملةِ خِطابِه الحِجاجيّ، والأبياتُ الّتي اشـتَملَتْ عَليهَا هِي الأبياتُ رقمُ: 9، 10، 11، 61، 65، 66، 67، والتّمثِيليّةِ، وكانَت عَلى نَحوٍ بَلغَ 6 مرّاتٍ بِنسـبةٍ مئويّةٍ تُعَادلُ 28 %، وعددُ مَا تمّ تَوظيفُه مِن الأبياتِ فِي الاسـتدلالِ بِهِ عَلى نحوِ مَا لَجأ الشّاعرُ للاستدلالِ بِهِ عَليهِ مِن الاستِعاراتِ التّمثيليّةِ بَأرقامِ: 5، 6، 7، 8، 47، 44، 45، 46، 64.

ثامنًا: ســـرد ابنُ عبدون مجموعةً كبيرةً من الحوادث التي تغصّ بها كتبُ التاريخ، مبينًا أنّ هذه ســـنّة الله في خلقه، مقنعًا مَن يتبرم ممّا حدث ويحدث على أرض الأندلس من فتنٍ ومصـائب وزوال، إنّ سـرد أخبار السـابقين فيه وسـيلةٌ من وسـائلِ الإقناعِ والبرهنةِ على صـدقِ مقولاتِ الشاعر، فالتاريخ بأحداثه وإعادته لها بعد زمن وسيلةٌ من وسائل إقناع الناس بزوال الحياة والموت وغيره....

تاسعًا: نلحظ وجودَ الاستعارةِ التصريحية، والاستعارةِ المكنية، والاستعارةِ التمثيلية، وأظهر البحثُ أن الاســتعارةَ المكنيةَ احتلت مكانةً بارزةً في شـــعرِ ابنِ عبدون، نتيجةً لقوتِها الحجاجية والتأثيرية، وأوضـح البحثُ أنّ الاستعارةَ لم تقتصـرْ على الزخرفةِ البلاغيةِ فحسب، بل استُخدمت

بشـــكلٍ رئيس لتحقيقِ التأثيرِ والاقناعِ ولتغييرِ وجهةِ نظرِ المتلقي، فالاســـتعارةُ تثير الانفعالات والمشـــاعر لدى المتلقي، وتحفز ذهنَه لاســـتيعابِ المعاني وإعادة إنتاجها، هذا يجعلها أداةً في تشـكيل سـلوكِ المتلقي، وتفتح المجال للتفاعل والتحفيزِ بين الشـاعرِ والمتلقي، وتتطلب تفاعلًا وفهمًا من قِبلِ المتلقي ؛ لاسـتيعابِ الدلالات والإشـارات الخفية في النص، وتم التأكيد على أن الشـاعر يسـتخدم الاسـتعارة ؛ لتحقيق أهدافه الإقناعية وللتعبير عن مشـاعره وأفكاره بطريقةٍ تُلهم المتلقي وتؤثر فيه.

عاشـرا: جاءت القصـيدةُ متحدثةً عن الدنيا وتشـويه وجهِها المتقلب، والزهد فيها، والحث على عدم الركون إليها، وهذه المعاني من المعاني الرثائية المتأصـــلة في غرض الرثاء؛ لأخذ العِظةِ والعبرة، وهي من الأدلةِ التي يسـتند عليها الشـاعرُ في القصـيدة؛ لإقناع الناس بصـدقِ فكرتِهِ، وأن الدنيا عاريةٌ مستردّةٌ، ودوامُها محال.

الهوامش والمصادر:

(1) جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب: مادة (حَ جَ جَ): دار صادر/ بيروت، ط1، 2000. ص38.

(2) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: د. علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م، ج1، ص622.

(3) يول آرون، وآخرون: معجم المصطلحات الأدبية، ترجمة: د. محمد حمود، ط١، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ٢٠١٢م، ص435

(4) الجاحظ البيان والتبيين: تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦م، ج١، ص ٩٢.

(5) أبو هلال العسكري كتاب الصناعتين: تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، مطبعة: عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٢م، ص49.

(6) أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة: ضبط وتحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981. ص16.

(7) محمد سالم ولد الأمين، مفهوم الحِجاج عن بيرلمان: ضمن الحِجاج مفهومه ومجالاته، ط1، دار الروافد الثقافية، بيروت، ٢٠١٣م، ص61.

(8) المصدر نفسه، ص61.

(9) هاجر مدقن، الخطاب الحِجاجي أنواعه وخصائصه دراسة تطبيقية في كتاب المساكين للرافعي: رسالة ماجستير جامعة ورقلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص46، 47، 23، 24، وينظر: عايد جدوع حنون، الحِجاج في كلام الإمام الحسين (عليه السلام)، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ٢٠١٣م، ص26.

(10) د. عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية...دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي: عالم الكتب الحديث/ الأردن، ط1، 2014. ص59، وينظر: الحجاج في القرآن... من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة: دار الفارابي/ لبنان، ط2، 2007. ص 10.

(11) المرجع نفسه، ص 241.

(12) يمينة تابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو،: العدد:2/ مايو/2007. ص294.

(13)جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال: دار غريب/ القاهرة، (د ط) 2000م، ص 7.

(14) د. عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية، ص 245.

(15) الأستاذة فتحية لعلاوي، الوظيفة الاقناعية للحجاج في الدراسات العربية والغربية، حوليات جامعة الجزائر، العدد 22، جويلية2012م، ص327.

(16) المرجع نفسه، ص330.

17) أرسطوطاليس، الخطابة، تلخيص وشرح: ابن سينا، تحقيق: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2009م، ص 217.

(18) المرجع نفسه، ص333.

(19) محمد العمري، الحجاج مبحث بلاغي فما البلاغة؟؟: ضمن كتاب: الحجاج...مفهومه ومجالاته،دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الجزء الأوَّل، الحجاج حدود وتعريفات، طبعة عالم الكتب الحديثة، ص23.

(20) شوقي ضيف، في النقد الأدبي: دار المعارف/مصر، ط3، (د ت). ص 149.

(21) د. عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة: الدار العربية للعلوم/ لبنان، ط1، 2009. ص39 الهامش

(22) فهر قبيلة من قريش تنتسب إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن معد بن عدنان، وهم قريش ولا قريش غيرهم، ولا يكون قرشي إلا منهم، ولا من ولد فهر إلا قرشي، ينظر: ابن حزم، علي بن حزم الأندلسي(ت:456هـ)، جمهرة أنساب العرب، حققه: عبدالمنعم خليل إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، 2009م، ص12.

(23) يابرة مدينة قديمة تقع غربي الأندلس، اشتهرت في مملكة بطليوس، ومنها العالم الكبير أبو بكر عبد الله ابن طلحة اليابري، وقد ذكرها ابن عبدون كثيرًا في شعره. ينظر: الحموي، معجم البلدان، 5/424، الزركلي، الأعلام، 4/149؛ الجبوري كامل سلمان، معجم الأدباء، 4/127.

(24) بنو الأفطس هم أصحاب بطليوس منذ سنة 421هـ - 478هـ، وهم من البربر، وقد انتسبوا إلى قبيلة نجيب العربية، كانت مملكتهم واسعة، اشتبكت مع بني عباد وبني ذي النون في عدة معارك، ومن أشهر رجالها محمد ابن الأفطس الملقب بالمظفر.ينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، بيروت، دار الثقافة (د.ت)، ص13.

(25) آنخل بالنثيا جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1982م، 118، وانظر: ابن بسام، علي بن بسام الشنتريني(ت578هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، راجعه وصححه: محمد شوقي أمين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، والترجمة،1966م،، القسم الرابع، 7/35، والقسم 3 / 533، ابن الأبار، محمد بن عبدالله القضاعي، (ت:658هـ)، التكملة لكتاب الصلة، حققه: عبدالسلام الهراس.

(26) عيد، يوسف، الشعر الأندلسي وصدى النكبات، دار الفكر العربي، بيروت، ط 1، 2002، ص 100.

(27) انظر مثلا: ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت:578هـ)،، الصلة، حققه: إبراهيم الأبياري، القاهرة،،بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1989م، 3/ 388.

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت:578هـ)،، الصلة، حققه: إبراهيم الأبياري، القاهرة،،بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1989م، 3/ 388، القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى السبتي(ت:544هـ)، الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، حققه: ماهر زهير جرار، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1982م، ص 71، محمد بن شاكر الكتبي(764هـ)، فوات الوفيات والذيل عليها، حققه إحسان عباس، بيروت، دار صادر(د.ت)، 2/388، حاجي خليفة، (ت:1076هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت دار الفكر، 1990م، 5/619.

(28) سليم التنير، مقدمة ديوان ابن عبدون، دمشق، دار الكتاب العربي، ص44

(29) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، علّق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدَّة، ط/3، 1992م، ص 67.

(30) صلاح حسن حاوي: بلاغة الإقناع في الخطاب النقدي القديم، الشركة العربية المتحدة للتسويق و التوريدات، القاهرة، ط/1، 2016م، ص 92.

(31) د. محمد حسين الصغير، أصول البيان العربي – رؤية بلاغية معاصرة، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق،

(د.ط)، (د.ت)، ص 94.

(32) نورة محمد عباس، الحجاج عند الشعراء السود،، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل، 2016م، ص212.

(33) البشير عزوزي، حجاجية الاستعارة في الشعر العربي، ديوان المتنبي أنموذجا، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، 2014م، ص32.

(43) أسرار البلاغة، الجرجاني، ص 32-33

(35) د. إياد عبد الودود الحمداني، شعرية المغايرة – دراسة لنمطي الاستبدال الاستعاري في شعر السياب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط/1، 2009م: 17.

(36) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط/1، 2004م، ص 494.

(37) فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال، و عبد الواحد التهامي العلمي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ط/1، 2013م، ص 123.

(38) سليمة محفوظي، وسائل الإقناع في خطبة طارق بن زياد – دراسة تحليلية في ضوء نظريّة الحجاج:، رسالة ماجستير، كلية الآداب و اللغات / جامعة الحاج الخضر باتنة، الجزائر، 2011م، ص 117.

(39) فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ص 124.

(40) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلاّم، دار المعارف، مصر: 79.

(41) تجليات التأمل في الشعر الأندلسي: قصيدة الجبل لابن خفاجة ورائية ابن عبدون نموذجا، للطالبة أم الخير بن بلخير، المجلد14، العدد2، 2022م، ص232.

(42) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص142

(43) حجاجية الاستعارة في شعر ابن فركون الأندلسي، دراسة تداولية، أ.م.د: حيدر رضا كريم، وزارة التربية، مديرية تربية بغداد، مجلة آداب المستنصرية، العدد 102، 2023م، ص123.

(44) عبد المجيد بن عبدون اليابري، ص ص143.

(45) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص145.

(46) أبو عبد الله بدر الدين بن مالك الدمشقي الشهير بابن الناظم: المصباح في المعاني والبيان والبديع تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 2001م، ص 178.

(47) مصطفى ناصف، مكتبة مصر، 1958م، ص124.

(48) عبد المجيد بن عبدون اليابري، ديوان شعر، مع دراسة لأدبه، إعداد وتحقيق. سليم التنير، دار الكتاب العربي، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، 1408هـ، 1988م، ص139.

(49) تظهر قدرتها الجمالية بوساطة التذكير بالتشبيه، إذ إنَّ الصفات التي تعقب المستعار له تأتي لا لكي تدعم المعنى، بل لكي تقف إلى جانب القرينة مدعمة إيّاها لأجل النفاذ إلى معنى، ولأجل تهميش المعنى الأول في كلمة الاستعارة: يُنظر: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد، ط1، الناشر: المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، 1990م، ص 126.

(50) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص139.

(51) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص148.

(52) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص149.

(53) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص149.

(54) عبد المجيد بن عبدون اليابري، ص149.

(55) عبد المجيد بن عبدون اليابري، ص150.

(56) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص151.

(57) أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط3، شركة القدس للنشر والتوزيع، مطبعة المدني بمصر، 1992: 67.

(58) أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (ت 626هـ)، مفتاح العلوم، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 2000م، ص 482.

(59) البشير عزوزي، حجاجية الاستعارة في الشعر العربي، ص60.

(60) د. علي عمران، حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي – خطب الإمام علي (عليه السلام) أنموذجاً، دار نينوى، دمشق، (د.ط)، 2009م: 103.

(61) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص140.

(62) عبد المجيد بن عبدون اليابري، ص149.

(63) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص150.

(64) د. عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية – علم البيان، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)، 1985م، ص 77.

(65) عبد المجيد بن عبدون اليابري، ص139.

(66) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص140.

(67) عبد المجيد بن عبدون اليابري، ص147.

(68) عبد المجيد بن عبدون اليابري، ص147.

(69) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص150.

(70) عبدالمجيد بن عبدون اليابري، ص150.